

العنوان:	غزل ابن حزم : دراسة في جدل السيرة والشعر
المؤلف الرئيسي:	أيوب، علي مصطفى محمد
مؤلفين آخرين:	عليان، مصطفى(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2005
موقع:	الزرقاء
الصفحات:	1 - 218
رقم MD:	749009
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	الجامعة الهاشمية
الكلية:	عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
الدولة:	الأردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	الشعر، السيرة، المفكرين الإسلاميين، ابن حزم
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/749009

لإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

أيوب، علي مصطفى محمد، و عليان، مصطفى. (2005). غزل ابن حزم: دراسة في جدل السيرة والشعر
(رسالة ماجستير غير منشورة). الجامعة الهاشمية، الزرقاء. مسترجع من
<http://search.mandumah.com/Record/749009>

إسلوب MLA

أيوب، علي مصطفى محمد، و مصطفى عليان. "غزل ابن حزم: دراسة في جدل السيرة والشعر" رسالة
ماجستير. الجامعة الهاشمية، الزرقاء، 2005. مسترجع من
<http://search.mandumah.com/Record/749009>

الفصل الأول

المبحث الأول: سيرته

(ولادته، تربيته، حياته، ثقافته، وفاته)

المبحث الثاني: الظاهرية والطوق

(ظاهريته وأصولها، طوق الحمامة، المذهب الظاهري وتأليف الطوق)

المبحث الثالث: موهبته الفنية ونشاطه الأدبي

(مظاهر الموهبة الشعرية، خصائص نثره، مشاركته النقدية)

المبحث الأول

سيرته⁽¹⁾ :

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب⁽²⁾ بن صالح بن خلف ابن معدان بن سفيان ، بن يزيد الفارسي ، مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي⁽³⁾.

ولد بقرطبة في الجانب الشرقي من روض منية المغيرة في مدينة الزاهرة⁽⁴⁾ بعد صلاة الصبح ، وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلاثمئة " ⁽⁵⁾ وأصل آبائه من قرية (مَنْتَ لِيْشَم) من إقليم الزاوية من عمل أولبة من كورة لبلة ⁽⁶⁾.

(1) انظر ترجمته عند : صاعد ، طبقات الأمم 97-99، والحميدي ، الجذوة 290-293، وابن الأبار ، المطمح ص 279 ، وابن بسام ، الذخيرة ق 1، م 1، 167-175، وابن بشكوال ، الصلة 395-396، وابن سعيد المغربي 354/1، والمراكشي ، المعجب ، 93 - 97، ولسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة 111/4-116، والمقري ، نفح 77/1-84، وياقوت ، معجم الأدباء 4 / 1650 ، والذهبي ، السير 18/184-212، وتذكرة الحفاظ 1146، وابن خلكان ، الوفيات 3/325-330، وابن تغري بَرْدِي ، النجوم الزاهرة 5/76، وابن حجر ، لسان الميزان 5/488-495 ، وقد صدرت عنه الكثير من الدراسات والبحوث ، وللاستزادة ، انظر ثبت المصادر والمراجع.

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 224.

(3) هكذا ساق صاعد الأندلسي معاصر ابن حزم، نسبة في طبقات الأمم ص 97، وهو أول من أورد نسبه كاملاً، وعنه أخذ من ترجم له فيما بعد.

(4) وهي المنطقة التي كان يسكنها والد ابن حزم، انظر : ابن حزم، طوق الحمامة، ص 251 .

(5) هذا ما كتبه بخط يده أبو محمد إلى صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص 99

(6) المصدر نفسه ، ص 97-98، وتروي (مَنْتَ لِيْشَم) بفتح الميم وسكون النون وفتح التاء المثناة من فوقها ، وكسر اللام، وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الشين المعجمة وفي آخرها ميم، انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان، 3/329-330.

كان والده أحد العظماء من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر ، ووزر لابنه
المظفر بعده ، وكان المدبّر لدولته (1) " وقد كان من أهل العلم والأدب والخبر، وكان
له في البلاغة يدٌ قويةٌ " (2) وقد وصفه ابن حيان بأنه " المعقّل في زمانه ، الراجح في
ميزانه... وهو الذي بنى بيت نفسه في آخر الدهر برأس رابية ، وعمّده بالخلال
الفاضلة، من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأي، فاغتنى جرثومة شرفٍ لمن
نماهم... (3) "

في قصر هذا الوزير نشأ ابن حزم أول ما نشأ ، ويبدو أنه كان له أخٌ شقيقٌ
يكبره بخمس سنوات ، أي أنه كان قد ولد سنة 379هـ ، والأرجح أنه (عُمُر) الذي
تعودُ عليه كنية والده (4).

وبشير ابن حزم إلى بعض ملامح التربية والتعليم التي كان يؤخذ بها في
طفولته ، فهو لم يجالس الرجال إلّا وهو في حدّ الشباب، وحين تبقّل وجهه (5)، ولذلك
فقد عهدَ أبوه بتعليمه إلى نساء القصر اللاتي - ولا بدّ - كنّ يتمتعن بقدرٍ من الثقافة
العلميّة والأدبيّة ، مكّنهنّ من القيام بهذه الوظيفة التي أنيطت بهنّ ، وعن ذلك يقول
ابن حزم : " ولقد شاهدت النساء ، وعلمتُ من أسرارهنّ ما لا يكاد يعلمه غيري ، لأنّي

(1) صاعد ، الطبقات ، ص 98 .

(2) الحميدي ، الجذوة ، ص 117 - 118 ، وعنه نقل ابن بشكوال في الصلة ، 1 / 31 .

(3) ابن بسام ، الذخيرة ، ق 1، م 1، ص 170 .

(4) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 259 .

(5) المصدر نفسه ، 166 .

رُبِّيتُ فِي حُجُورِهِنَّ ، وَنَشَأْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ ، وَلَمْ أَعْرِفْ غَيْرَهُنَّ ... وَهِنَّ عَلَّمَنِي الْقُرْآنَ ، وَرَوَّيَنِي كَثِيرًا مِنَ الْأَشْعَارِ ، وَدَرَّبَنِي فِي الْخَطِّ... (1) "

"وما من شك في أنّ لمثل هذا اللون من الحياة أثره في توجيه مشاعره، وطبع مداركه ، دون أن يقف الأمر إلى تعرّف أسباب النساء ، وفحص أحوالهنّ – كما يقول عن نفسه- فالأمر أعمق من ذلك أثراً " (2).

وأثناء هذه النشأة المقصورة بين الإماء والجواري والقيان ؛ أصيب ابن حزم بعددٍ من الأمراض التي ربما كان لها أثرها في تشكيل شخصيته ، وتكوين مزاجه وأخلاقه ، فقد أصيب في صباه بخفقان القلب (3) ، كما أصيب أيضاً بعلّةٍ شديدة في الطحال ، وإلى هذه العلة يعزو ضيق خلقه ، وقلة صبره ، وحدة طبعه (4).

ولعلّ إصابته بهذه الأمراض أيضاً كانت وراء تأخير اجتماعه بالرجال ومجالستهم ، وإحاطته بالنساء يرعيه ، ويأخذنه بألوان من التدليل والملاطفة والعطف، لاسيما أنّهنّ أكثر إشفاقاً ، وأكبر مقدرة على الاهتمام بأمثاله ، وأشدّ حذراً أن يناله شيءٌ من المكروه .

" وقد رأينا أنّ تعليمه في هذه المرحلة الأولى يكاد يكون مقصوراً على تعلّم الكتابة والقراءة ؛ أي تحصيل الأداة الأولى للمعرفة ، ثم يلي ذلك حفظ القرآن ، ورواية

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص166.

(2) الحاجري ، ابن حزم ، ص39.

(3) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص111.

(4) ابن حزم ، رسائله (رسالة في مداواة النفوس) ج 1 ، ص391 ، وانظر ص 388 أيضاً .

الشعر، فقد كانت - إذن - تربيةً ترمي في حقيقتها إلى تقويم الذوق الفني وتنقيفه ،
والى إعداد اللسان وتهذيبه ، وهو أداة التعبير عما يستشعره الذوق ، وما يُحسّه من
صور الفن " (1).

وفي ظل هذه الحياة المترفة ، التي في ظلها تزداد النفوس رقةً ، والمشاعر
إرهاقاً، والأرواح صفاءً ، تعرضّ لفنونٍ من الحبّ، وهو يتحدث عن ذلك في غير حرج
ولا مبالاة ، فيقول مثلاً : " وعني أخبرك ؛ أنني أحببتُ في صباي جاريةً لي شقراء
الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على صورة الشمس،
أو على صورة القمر نفسه ، وإنني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت، ولا
تواتيني نفسي على سواه ، ولا تحب غيره البتة " (2).

وفي موضعٍ آخر ، يعرضُ صورةً من صور حبّه ، يمكن من خلالها تبين
بعض التفاصيل التي كانت تحيط به في أثناء صباه ، حين كان يعيش في القصر بين
النساء، يقول: " وإنني لأخبرك عني؛ أنني ألقت في صباي ألفة المحبة جارية نشأت في
دارنا، كانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية في حسن وجهها
وعقلها، وعفافها ، وطهارتها ، وخفرتها، ودمائتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة
البشر، مُسَبَّلَة السَّتر ، فقيدة الدّام، قليلة الكلام، مغضوضة البَصَر، شديدة الحذر، نقيّة
من العيوب ، دائمة القُطوب ، حُلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض، مليحة الصدود،

(1) الحاجري ، ابن حزم ، ص40-41 .

(2) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص130 .

رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النّفار ، لا توجّه الأراجي نحوها ، ولا تقف
المطامع عليها، ولا مُعرّس للأمل لديها، فوجهها جالبٌ كلّ القلوب، وحالها طاردٌ من
أمّها، تزدان في المنع والبخل، ما لا يزدان غيرها في السماحة والبذل، موقوفةً على
الجدّ في أمرها ، غير رغبةٍ في اللّهِ ، على أنّها كانت تُحسّنُ العود إحساناً جيّداً ،
فجنحتُ إليها ، وأحببتُها حبّاً مُفرطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني
بكلمة ، أو أسمع من فيها لفظةً - غير ما يقع في الحديث الظاهر لكل سامع - بأبلغ
السعي ، فما وصلتُ من ذلك إلى شيء البتّة.

فلعَهدِي بِمُصْطَنَعٍ كان في دارنا ، لبعض ما يُصْطَنَعُ له في دور الرؤساء ،
تجمّعت فيه دِخْلُنا ودِخْلَةُ أخي - رحمه الله- من النّساء، ونساء فتياننا، ومن لاث بنا
من خدَمِنا ممن يخفّ موضعه ، ويلطّفُ محلّه ، فلبثنَ صدراً من النهار ثمّ نزلنَ
إلى البستان، فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيّدتها، في سماع غنائها، فأمرتها فأخذت
العود وسوّته بخفّرٍ وخجلٍ ، لا عهدَ لي بمثله- وإنّ الشيء يتضاعفُ حُسْنُهُ في عين
مستحسنه- ثم اندفعت تُغني بأبيات العباس بن الأحنف ، حيث يقول :

إِنِّي طَرَبْتُ إِلَى شَمْسٍ إِذَا غَرَبَتْ كَانَتْ مَغَارِبُهَا جَوْفَ الْمَقَاصِيرِ
شَمْسٌ مُمَثَّلَةٌ فِي خَلْقٍ جَارِيَةٍ كَأَنَّ أَعْطَافَهَا طَيُّ الطَّوَامِيرِ
فَالْوَجْهَ جَوْهَرَةً، وَالْجِسْمَ عِبْرَةً وَالرَّيْحَ عَنَبَةً، وَالْكُلَّ مِنْ نُورِ
كَأَنَّهَا حِينَ تَخْطُو فِي مَجَاسِدِهَا تَخْطُو عَلَى الْبَيْضِ أَوْ حَدَّ الْقَوَارِيرِ

فلَعَمْرِي لَكَانَ المَضْرَابَ إِنَّمَا يَقَعُ عَلَى قَلْبِي ، وما نَسِيتُ ذلكَ اليومَ ، ولا أنساه
إلى يومِ مفارقتي الدنيا ، وهذا أَكْثَرُ ما وَصَلْتُ إِلَيْهِ مَنْ التَّمَكَّنَ مِنْ رُؤْيَيْهَا ، وَسَمَاعِ
كَلَامِهَا... " (1).

وهذا نصٌّ ثَمِينٌ يَشِيرُ فِيهِ ابْنُ حَزْمٍ إِلَى بَعْضِ تَفَاصِيلِ تِلْكَ الْحَيَاةِ الَّتِي عَاشَهَا ،
كَمَا يُطْلِعُنَا النَّصُّ عَلَى بَعْضِ مَلَامِحٍ مِنْ نَفْسِيَّةِ ابْنِ حَزْمٍ وَشَخْصِيَّتِهِ ، الَّتِي تَمِيلُ نَحْوَ
الْصِّفَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ ، أَكْثَرَ مِنْ مِيلِهَا إِلَى الصِّفَاتِ الْجَسَدِيَّةِ الْحَسِّيَّةِ ، وَيُظْهِرُ
ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تِلْكَ الصِّفَاتِ الْخَلْقِيَّةِ الَّتِي خَلَعَهَا هَذِهِ الْجَارِيَّةُ .

كما أَنَّ وَجُودَهُ بَيْنَ النِّسَاءِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ اللَّاهِي ، وَتِلْكَ النَّزْهَةِ الْغَنَاءِ ،
يَدُلُّ عَلَى حِرْصِ النِّسَاءِ عَلَيْهِ ، حَتَّى فِي أَوْقَاتِ لَهْوِهِنَّ ، وَمَلَازِمَتِهِنَّ لَهُ حَتَّى فِي
سَوِيَعَاتِ تَرْوِيحِهِنَّ عَنْ أَنْفُسِهِنَّ .

ويشير النصُّ إلى مدى رَقَّةِ نَفْسِ ابْنِ حَزْمٍ ، وَشَدَّةِ تَأَثُّرِهَا بِالْجَمَالِ ، وَانْفِعَالِهَا
بِهِ ، وَتَفَاعُلِهَا مَعَهُ ، وَتَقْدِيرِهَا لَهُ بِكَافَةِ صُورِهِ وَجَوَانِبِهِ .

وربما يلفت الانتباه أيضاً تَجَنُّبُ ابْنِ حَزْمٍ ذِكْرَ وَالِدَتِهِ أَوْ أَخَوَاتِهِ مُبَاشَرَةً ، وَحِينَ
اضْطَرَّ إِلَى ذِكْرِ وَالِدَتِهِ دَعَاها بِ(السَّيِّدَةِ) وَهِيَ الَّتِي رَغِبَ إِلَيْهَا النِّسَاءُ فِي أَنْ تَأْذِنَ
لِلْجَارِيَّةِ بِأَنْ تَسْمَعَنَ صَوْتَهَا بِالْغَنَاءِ ، وَرَبِّمَا كَانَ يَعْنِي بِقَوْلِهِ (كَرَائِمُنَا) أَخَوَاتِهِ ، وَلَكِنْ
لِمَاذَا تَجَنَّبَ ابْنُ حَزْمٍ الْإِشَارَةَ إِلَى حَرِيمِ بَيْتِهِ ؟ أَكَانَ ذَلِكَ نَوْعاً مِنَ التَّصَوُّنِ ، وَالنَّأْيِ
بِهِنَّ عَنْ أَنْ يَذْكُرْنَ فِي هَذَا الْكِتَابِ ؟

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 249 - 251 .

على كلِّ حالٍ فإنَّ ابن حزم وإن عاش في صباه تلك العيشة المترفة اللاهية ،
المترعة بأنواع العطف والرعاية والتدليل ، إلاَّ أنه كان في الجانب الآخر مأخوذاً
بضوابط الدين والأخلاق ، التي لم يكن يُسَمِّحُ له بتجاوزها ، أو بتعدي حدودها وعن
ذلك يقول : "... ومع هذا يعلمُ الله ؛ وكفى بع عليماً ، أني بريء الساحة ، سليم
الأديم، صحيح البشرة ، نقي الحجرة ، وإنني لأقسم بالله أجلَّ الأقسام ، إنني ما حللتُ
مئزري على فرجٍ حرام قطُّ ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومي هذا ،
والله المحمود ، على ذلك ، والمشكور فيما مضى ، والمستعصم فيما بقي ... وكان
السبب فيما ذكرته ، أني كنتُ وقت تأجج نار الصبا ، وشرَّة الحداثة ، وتمكَّن غرارة
الفتوة ، مقصوراً مُحَظَراً عليَّ بين رقباءٍ ورقائب " (1).

وكما عانى ابن حزم الحبَّ في صباه ، فقد عانى قولَ الشعرِ أيضاً منذ صباه،
فقد أشار في أحد المواضع إلى أنه قال أبياتاً قبل بلوغ الحُلُم (2) أو في صباه (3) ، وقد
صنَّع بعض الأبيات لإحدى كرائم المظفر بن أبي عامر (4) كما قال بعض الأبيات في
تلك الجارية التي سقت قصته معها قبل قليل .

تلك صورةٌ عن حياةِ ابن حزم في صباه، رسم ملامحه ما تركه من إشارات

مفهمة إلى بعض جوانبها.

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 272 .

(2) انظر: المصدر نفسه، ص113 .

(3) انظر: المصدر نفسه، ص194 .

(4) انظر: المصدر نفسه، ص 255 .

ويبدو التنازع فيها بين الالتزام الديني أو التربية الدينية، وخفض العيش ظاهراً

غير أنه كان له أثر مميز في توجيه نشاطه الوجداني تلك الوجهة الفنيّة (1).

فإذا تركنا هذه المرحلة، وتابعنا ابن حزم فيما بعد، وجدناه يبدأ فترة من حياته

تُعدّ خروجاً عن المألوف ، وذلك أنه ينطلق بحياته الخاصة إلى العالم الواسع الرحيب

، خلف أسوار القصر ، وبعيداً عن أعين الرقباء والرقائب ، في مجالس المحدثين ،

وحلقات الرواة .

ومنذ ذلك الحين ، وفي فترة مبكرة من حياته ، يبدأ بالسماع (2) وملاقة العلماء

والأخذ عن الشيوخ ، وقد كانت هذه المرحلة من أخصب مراحل حياته ، حيث أخذ

أثناء طلبه للعلم بالتعرّف إلى شخصيات كان لبعضها أثر كبير في تقويم اتجاهاته

الخلقية والسلوكيّة (3) كما كان لصحبة بعضها الآخر دور لا ينكر في صقل موهبته

الأدبيّة ، وتهذيب ملكته الشعريّة ، من خلال تلك المساجلات والحوارات التي يتبادلها

مع أصدقائه ، أثناء انطلاقهم نحو مجلس من مجالس العلم ، أو أثناء اجتماعهم في

مناسبة ما (4).

(1) انظر : الحاجري ، ابن حزم، ص44-45.

(2) انظر : الحميدي ، الجنوة ، ص 290 .

(3) يقول ابن حزم في الطوق : " فلما ملكت نفسي وعقلتُ، صحبتُ أبا علي الفاسي ... وكان عاقلاً عاملاً ، عالماً، ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح... وما رأيت مثله جملةً علماً وعملاً وديناً وورعاً ، فنفعني الله به كثيراً وعلمت منه موقع الإساءة ، وقبح المعاصي " . الطوق ، ص 273 .

(4) ذكر الحاجري بعض هؤلاء الأصدقاء ، وبعض تلك المناسبات ، انظر: ابن حزم ، الطوق ، ص75-77.

وقد رافق هذا التحول في حياة ابن حزم الخاصة ، تحوُّلٌ في حياة الأندلس عامة، حيث نشبت الفتنة البربرية⁽¹⁾، وكانت إيذاناً بالقضاء على كلِّ ما بناه المجتمع الإسلامي في الأندلس من جميع النواحي .

"وقد بدأت هذه الفتنة في العام الذي خرج فيه فتانا ابن حزم إلى الحياة العامة، فهو قد خرج من النقيض إلى النقيض ، من حياةٍ هادئةٍ كلِّ الهدوء ، مقصورةٍ أشدَّ أنواع القصر ، يسودها الحبُّ ، وتسيطر عليها ملائكة الجمال والرحمة! إلى حياة مضطربةٍ مضطربة ، يمجج بعضها في بعض ، تسيطر عليها أبالسة الشرِّ، وتقودها شياطين البغضاء والحقد ، ويا لله لهذا الصغير الناشئ الغرير ، وتلك النفس الغضة الناعمة ، من ذلك الانقلاب الذي بوغتت به بكل معاني المباغطة " (2).

ولو أنَّ الأمر وقف عند هذا الحدِّ ، لكان الخطب هيناً ، فقد خصَّت الأيام ابنَ حزمٍ بلطماتٍ شديدة ، كان يتلقاها الواحدة تلو الأخرى ، وهو مع ذلك لا تلين عريكته ، ولا تتطفئ جمرته .

حينما اشتعلت الفتنة ، بقيام محمد بن هشام المهدي ، في جمادى الآخرة سنة 399هـ ، وخَلَعِه لهشام المؤيَّد ، واغتصابه الخلافة⁽³⁾ ، أحسَّ والدُ ابن حزم بأنَّ الأمور إلى إدبار ، وأنَّ عقد الخلافة بدأ ينتثر ، وانفتح باب سفك الدماء وهيهات أن

(1) انظر في تفاصيل الفتنة البربرية : الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم، ص 103-134 ، والمصادر الأندلسية القديمة التي أرخت لهذه الفترة .

(2) الحاجري ، ابن حزم، ص57.

(3) انظر : ابن حزم ، رسائله (رسالة ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس) ج2 ، ص 196.

يُغْلَق ، فكان لا بد من إجراء ذكيٍّ وسريع يقي الوزير وأهله ويلات هذه الفتنة، وعن هذا الإجراء يحدثنا ابن حزم قائلاً: " ثمَّ انتقل الوزير أبي - رحمه الله - من دورنا المحدثه بالجانب الشرقي من قرطبة في ربح الزاهرة ، إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدى بالخلافة ، وانتقلت أنا بانتقاله ، وذلك في جمادى الآخرة ، سنة تسع وتسعين وثلاثمئة " (1).

وبهذا يبيّنه الطفل الغرير بالانتقال من مراتب أنسه ، وملاعب صباه التي ألفها ، إلى دور ليس له بها عهد ، ولم يقض فيها شيئاً من عمره .

وبعد مقتل المهدى وعودة الأمر إلى هشام : تبدأ النكبات تنزل بالأمير وأهل بيته، يقول ابن حزم: " ثمَّ شُغِلْنَا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد ، بالنكبات ، وباعتداء أرباب دولته ، وامتحننا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح ، والاستتار ، وأرزمنا الفتنة ، وألقت باعها ، وعمت الناس وخصتنا " (2).

وأثناء هذه النكبات ، يطرق الموت أولى طرقاته على بوابة حياة ابن حزم وذلك حين يموت أخوه في الطاعون الواقع بقرطبة في شهر ذي القعدة ، سنة إحدى وأربعمئة، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة (3) وقد ظلت هذه الأحوال السيئة مستمرة ،

والعقوبات مفروضة ، إلى أن توفي والد ابن حزم ؛ الوزير أحمد بن سعيد - رحمه

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 251 .

(2) المصدر نفسه، ص 251 .

(3) المصدر نفسه، ص 259 .

الله- " بعد العصر يوم السبت ، لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة اثنتين وأربعمئة (1)
ولعلي بن أحمد بن سعيد (ابن حزم) ثمانية عشر عاماً لما تكتمل، وكان عليه، وهو
في هذه السنّ الطريّة ، وفي عنفوان تعاسة أسرته ، أن يواجه الموقف ، وأن يدير دفعة
الأحداث (2).

وتتمّ ثلاثيّة الموت في حياة ابن حزم بوفاة الزوجة والحبيبة ، التي كان لموتها
أثره في إنتاجه الشعري ، يقول عن ذلك دون أن يحدّد سنة وفاتها : "... وذلك أني
كنت أشدّ الناس كلفاً ، وأعظمهم حباً ، بجارية كانت لي - فيما خلا - اسمها "نعم" ...
ففجعتني بها الأقدار ، واختزمتها الليالي ومرّ النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار
، وسنّي حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هي دوني في السنّ، فلقد أقمتُ بعدها
سبعة أشهر لا أتجرّد عن ثيابي، ولا تفتر لي دمعة - على جمود عيني، وقلة
إسعادها- وعلى ذلك، فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قُبِلَ فداءً لفديتها بكل ما أملك
من تالٍ وطارف ، وبيعض أعضاء جسمي العزيزة عليّ ، مسارعاً طائعاً، وما طاب
لي عيشٌ بعدها، ولا نسيْتُ ذكرها، ولا أنستُ بسواها، ولقد عفى حبي لها على كل ما
قبله ، وحرّم ما كان بعده..." (3)

وتظلّ الأهوال تتّابعُ على ابن حزم وأسرته ، فيقول : " ثمّ ضرب الدهر ضرباتِهِ
، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلّب علينا جُنْدُ البربر ، فخرجتُ عن قرطبة أوّل المحرم سنة

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص251 - 252 .

(2) الطاهر مكي ، دراسات عن ابن حزم ، ص81.

(3) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص224 .

أربع وأربعمئة" (1) وسكنتُ مدينة المريّة (2) وبهذا بدأ رحلاته التي قسمت حياته منذ هذا الوقت بين بلاد الأندلس ، شرقيةً وغربيةً ، بريةً وبحريةً ، وبذلك بدأ حياة جديدة ، هي أشبه بحياة التشرد (3).

ويبدو أنه كان في هذه المدينة (المريّة) يستأنس برفقة صديقه أبي بكرٍ محمد بن إسحاق (4) ومع ذلك فإنّ حنينه إلى قرطبة لم يبرد ، وشوقه إليها ما يزال يقضّ مضجعه ، ولذلك فهو يسأل عن أخبارها بين الفينة والفينة، كقوله في الطوق: " ولقد أخبرني بعض الوّارد من قرطبة - وقد استخبرته عنها- أنّه رأى دورنا ببلاط مغيّث في الجانب الغربيّ منها ، وقد أمّحت رسومها ، وطُمِسَتْ أعلامها، وخفيت معاهدُها، وغيرُها البلى ، فصارت صحارى مجدبةً بعد العمران ، وفيافي موحشة بعد الأُنس..." (5)

وظل وفياً لأصدقائه الذين غادرهم فيها ، إذ لم تذهله غربته عن مكاتبتهم ، فحين يتحدّث عن صديقه أبي عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن الحسين التميمي المعروف بابن الطُّبْنِيّ، يقول: "... فإنه كان - رحمه الله- كأنه قد خُلِقَ الحسنُ على مثاله ، أو خُلِقَ من نفس كلّ من رآه ، لم أشاهد له مثلاً حسناً وجمالاً ، وخلقاً وعفّةً،

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص252 .

(2) المصدر نفسه ، ص 261 .

(3) الحاجري ، ابن حزم ، ص84.

(4) انظر : ابن حزم ، طوق الحمامة، ص 261 ، وصديقه أبو بكر الإسحاقى المهلبى الوزير ، من أهل الأدب

والفضل ، وهو الذى خاطبه أبو محمد بن حزم برسالته فى فضل الأندلس . انظر: الحميدى ، الجذوة ، 42 .

(5) المصدر نفسه ، ص 227.

وتصاوناً وأدباً ، وفهماً وحلماً ، ووفاءً وسؤدداً ، وطهارةً وكرماً ، ودماثةً وحلاوةً ،
ولباقةً وإغضاءً ، وشاعراً مُفلقاً ، حسن الخط ،... وكنا أليفين لا نفترق ، وخذنين لا
يجري الماء بيننا إلا صفاء... " (1).

وفي سنة 407هـ قُتل الخليفة المستعين ، وبويع علي بن محمود الحسني
بالخلافة ، وظهرت به دولة الطالبية (2) التي يأخذ أولياؤها في ملاحقة أنصار
الأمويين ، والتتكيل بهم ، وعن ذلك يقول ابن حزم : " وفي إثر ذلك نكبني خيران
صاحب المريّة، إذ نَقَلَ إليه من لم يتقِ الله عز وجلّ من الباغيين - وقد انتقم الله منهم
عني وعن محمد بن إسحاقٍ صاحبي- أنا نسعى في قيام الدولة الأمويّة، فاعْتَقَلْنَا عند
نفسه أشهراً ، ثم أُخْرِجْنَا على جهة التغريب ، فصرنا إلى حصن القصر ، ولقيْنَا
صاحبهُ أبو القاسم عبدُ الله بن هذيل التجيبي ، المعروف بابن المقفّل ، فأقمنا عنده
شهوراً في خير دار إقامة ... ثم ركبنا البحر قاصدين بِلَنْسِيّة ، عند ظهور أمير
المؤمنين المرتضى ، عبد الرحمن بن محمّد " (3).

وسار ابن حزم ورفيقه في ركاب جيش المرتضى ، حالمين باستعادة الخلافة
الأمويّة ، لكنّ أحلامها تكسّرت على صخرة البربر القاسية ، حيث التقوا بجيش

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص260 ، وذكره الحميدي ، ووصفه بالحَمَانِي السَّعْدِي الطُّبْنِيّ ، أبو عبد الله ،
من أهل بيت آداب وشعر ورياسة ، انظر : الجذوة ، ص94 ، وله شقيقان أحدهما سيمر ذكره بعد قليل ، والآخر
هو أبو بكر إبراهيم بن الطُّبْنِيّ الوزير ، أديب شاعر ، وقد كان صديقاً لابن حزم أيضاً . انظر ، الجذوة ، ص
149 .

(2) انظر : المصدر نفسه ، ص260 .

(3) المصدر نفسه ، ص 261 - 262 .

المرتضى ، وانقضوا عليه بشراسة ... فتمزق جيشه شرَّ مُمَرَّق ، وقتل المرتضى غيلةً

، على حين تَوَزَّع الأسر والقتل والهرب جيشه ، وكان ابن حزم بين الأسرى⁽¹⁾.

ويبدو أنَّ فترة أسره لدى خيران لم تطل ، وما أن أطلق سراحه ، حتى وجد نفسه

تطير إلى قرطبة ، فرجع إليها في شوال سنة تسع وأربعمئة⁽²⁾ في خلافة القاسم بن

حمود⁽³⁾ فسارع إلى قصر أبي عمرو القاسم بن يحيى التميمي ؛ أخي صديقه أبي عبد

الله الطُّبْنِيّ ، وسأله عن أشعاره ورسائله ، فأخبره أنّه لما قرئت وفاته ، وأيقن بحضور

الموت ، دعا بجميع شعره ، ويكتب ابن حزم التي كان قد خاطبه بها ، فقطعها كلّها ثمّ

أمر بدفنها⁽⁴⁾ وها هي المرة الثانية التي يفقد فيها ابن حزم محصوله الذهني ، ونتاجه

الفكري ، وكانت الأولى على يد خيران العامري ، حين أخرجه مع صديقه من المريّة

(5) .

وهنا ، وإن اكتحلت عيناه بمراى قرطبة ، إلّا أنها لم تكن كما عهدتها قبل

خروجه منها، فقد أقفرت مرابعها ، وخوت عرصاتها ، حتى صاحبتة التي ألفها في

صباه ألفة المحبة ، والتي كانت غايّة في حسن وجهها وعقلها وعفافها، وجدها قد "

(1) الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم، ص84.

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص252 .

(3) المصدر نفسه، ص263 .

(4) المصدر نفسه، ص263 ، وجاء في جميع نسخ الطوق أنّ مسكن أبي عبد الله الطبري في الجانب الشرقي ببلاط مغيث ، وقد ذكر ابن حزم أنّ بلاط مغيث يقع في الجانب الغربي من قرطبة ؛ حيث دورهم القديمة ، ولم يشر أيّ ممن حقق الطوق إلى هذه الزلة ، انظر : الطوق بتحقيق الصيرفي ص118 ، والطاهر مكي ص144 ، وإحسان عباس ص261 ، والقاسمي ص217 ، وانظر مخططاً تقريبياً لمدينة قرطبة : في مقدمة كتاب الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم ، ص12 ، حيث يظهر بلاط مغيث في الجانب الغربي .

(5) انظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص261، وص263 .

تغيّر أكثر محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاض ذلك الماء الذي كان يُرى كالسيف الصقيل ، وذبل ذلك النّوار الذي كان البصر يقصده متوّراً ، ويرتاد فيه متخيّراً ، وينصرفُ عنه متحيّراً ، فلم يبقَ إلا البعض المنبئ عن الكلّ ، والخبر المخبر عن الجميع" (1).

وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلّ ابن حزمٍ في قرطبة يطلّب العِلْمَ ، ويقيم علاقات جديدة ، حتى اختار أهل قرطبة عبد الرحمن المستظهر خليفةً ، فاتّخذ ابن حزم وزيراً ، إلّا أنه لم يكد يضع رجله على أولى عتبات الخلافة ، حتى سارع أهل قرطبة إلى إسقاطه ثمّ قتلِهِ ، في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة 414 هـ ، ليعود ابن حزم إلى السجن مرّةً أخرى، ثمّ إلى حياة التّشرد (2).

والأرجح أنّ هذه الفترة، هي التي شهدت انصرافه الجاد نحو الفقه ، وطلب العلوم الشرعيّة ، بشكل جادٍّ وحقيقي ، وهي التي شهدت أيضاً اعتناقه للمذهب الظاهري كما سيأتي بيانه .

وقد ذهب عددٌ من الباحثين إلى أنّ ابن حزم قد اعتزل السياسة ، وتركها إلى غير رجعة ، بعد ما رآه من عبثٍ بالدماء ، واستهانة بالأرواح ، وإهدارٍ للقيم الإنسانيّة

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص252 .

(2) انظر : الحاجري ، ابن حزم ، ص134-142 ، والطاهر مكي ، دراسات عن ابن حزم ، ص85-86 .

، فاعتكف على العلم والدرس والتأليف ، لعلّه يجدُ فيها ما يستحق عنايته أو يشفي حسرتَه (1).

غير أن الحاجري ذهب إلى أنّ ابن حزمٍ قد تولّى الوزارة في هذه الفترة للمعتدّ بالله بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، ثم نبذ هذه الطريقة ، وأقبل على قراءة العلوم ، وتقييد الآثار والسنن (2).

ولكنه - أي الحاجري - يرى : " أنّ ما نعرفُ عن خلافة المعتدّ وملابساتها، يجعلنا نأخذ وزارة ابن حزمٍ بأقلّ معانيها ، وأدنى صورِها ، فلا نراها امتدّت ، أو اتخذت شكلاً جدياً " (3).

والذي يعنينا هو أنّ هذه الفترة كانت بداية انصرافه الحقيقي إلى العلم، وبعدها بدأ بوضع مصنفاته في مختلف العلوم ، وينشر مذهبه الظاهري الذي كان له أثره على بقية المذاهب الأخرى ، وأخذ ينافح عنه ويجادل دونه، ويحتمل في سبيل تبليغه شتى أصناف الأذى ، دون أن يردّه ذلك عن رأيه .

وعلى أية حالٍ ، فإننا نراه في شاطبة قبل ربيع الثاني من سنة (417هـ) ، حيث يشير في طوق الحمامة إلى الفتنة التي قامت بين الموفق أبي الجيش مجاهد

(1) انظر: إحسان عباس ، عصر سيادة قرطبة، ص 310، وشوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (الأندلس)، ص 496، وأحمد هيكّل، الأدب الأندلسي، ص 355، والطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم، ص 86، وزكريا إبراهيم، ابن حزم الأندلسي، ص 33، والحاجري، ابن حزم، ص 143.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 4، ص 1651.

(3) الحاجري، ابن حزم، ص 147.

العامري، صاحب الجزائر، وبين خيران صاحب المريّة، وبدأت في ربيع الثاني من

السنة السابعة عشرة بعد الأربعمئة (1).

وبناءً على هذه الإشارة وإشاراتٍ غيرها، ذهب معظم الباحثين إلى أنّ تأليف ابن

حزمٍ للطوق كان في هذه المرحلة من حياته .

وعند قراءة هذه الرسالة - أعني الطوق - بإمعان ، يمكن أن نلاحظ أنّ

إحساس ابن حزمٍ بالغربة في هذه الفترة كان قوياً غامراً عميقاً، فكثيراً ما تقع العينُ على

نصوصٍ تفيضُ حسرةً ، وترشح وحدةً ووحشة، من خلال استدعاء تلك الصور المشرقة

التي كانت تتدبّر بها حياته في صباه ، وعرضها على ما آلت إليه في الوقت الحاضر

، مما يعكس تلك المحنة النفسية الطاغية التي كانت تعصفُ به ، بعد أن صار

هاجس فراق قرطبة إلى غير رجعة يراوده ويقض مضجعه ، ويطبقُ عليه من كل

جانب ، ومن ذلك قوله: " وما انتفعتُ بعيش ، ولا فارقني الإطراق والانغلاق ، مذ ذقتُ

طعمَ فراق الأحبة ، وإنّه لشجى يعتادني ، وولوع همٌّ ما ينفكُ يطرقني ، وقد نغص

تذكّري ما مضى كلّ عيشٍ أستاذفُهُ، وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء، ودفين الأسى

بين أهل الدنيا، والله المحمود على كل حالٍ، لا إله إلّا هو " (2).

ولا يتّضح على وجه الدقة أين كان مقام ابن حزمٍ بعد هذه الفترة من حياته، إلّا

أنه كان حوالي سنة 421هـ وما بعدها مقيماً بالبوننت عند صاحبه أبي عبد الله محمد

(1) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، ص 217 .

(2) المصدر نفسه، ص 125، وانظر أيضاً ص 228 ، وص 309 .

بن عبد الله بن قاسم الفهري (١) الذي كتب له رسالته في فضائل الأندلس وذكر رجالها، وفيها يثني ابن حزم على هذا الرجل ثناءً عاطراً، فهو يقول فيه: " الذي أجلُّه عن كلِّ خُطيةٍ يَشْرُكُه فيها من لا تساوي نومته قومته، ولا ينال حُضره هويناه، وأربأ به عن كلِّ مرتبةٍ يلحقه فيها من لا يسمو إلى المكارم سموه، ولا يدنو من المعالي دنوه، ولا يعلو في حميد الخلال علوه ، بل أكتفي من مدحه باسمه المشهور، وأجتري من الإطالة في تقرّظه بمنتماه المذكور " (2).

وفي هذه الرسالة أيضاً نجد ملامح حالته النفسية كما كانت في طوق الحمامة ، ولكنّها هنا نابعة من ذلك الهجوم الذي أخذ يشنّه عليه فقهاء عصره بشراسة، بسبب ما يحمله من فكر يخالف فكرهم، ومنهج في النظر ينافي مناهجهم، فإنَّ أهل الأندلس - فيما يرى- لا يوقّرون العالم، ولا يحترمون صاحب الأفكار الجديدة والآراء الحرّة، ولذلك فهم يذمّونه، ويكسرون همته، سواء أحسن أو أساء: " إن إجاد، قالوا: سارق مغير، ومنتحل مدّع، وإن توسّط، قالوا: غثُّ بارد، وضعيفٌ ساقط، وإن باكر الحياة لقصب السبق، قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلّم؟ وفي أي زمان قرأ؟ ولأمّه الهبل!

(١) البونت : حصن من أعمال بلنسية ، استقل به بنو القاسم بعد الفتنة ، حكمه أولاً عبد الله بن قاسم حتى توفي سنة 421 هـ ، ثم وليه ابنه محمد ، وهو راعي ابن حزم المذكور أعلاه ، فسار سيرة أبيه في الحزم والعدالة ، حتى توفي سنة 431 هـ ، وظل أبناؤه يحكمونه حتى استولى عليه يوسف بن تاشفين سنة 485 هـ ، انظر: محمد حاملة ، موسوعة الديار الأندلسية ، 1 / 325 - 326 ، وابن عذاري ، البيان المغرب ، 3 / 215 .

(2) ابن حزم، رسائله (رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها) ج 2، ص172 ، وانظرها عند ، المقرئ ، نفح الطيب ، 3 / 156 .

وبعد ذلك ، إن وَلَجْتُ به الأقدار أحدَ طريقين: إما شفوفاً بائناً يُعليه على نظرائه، أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها، فهناك حمي الوطيس على البائس، وصار غرضاً للأقوال، وهدفاً للمطالب، ونصباً للتسبب إليه، ونهباً للألسنة، وعُرْضَةً للتطرق إلى عرضيه، وربما نُحِل ما لم يُقَل، وطُوق ما لم يتَقَلَّد، وأُلْحِق به ما لم يُفْه به، ولا اعتقده قلبه، وبالحرى - وهو السابق المبرز - إن لم يتعلّق من السلطان بحظ، أن يَسَلَمَ من المتالف، وينجو من المخاوف، فإن تعرّض لتأليف غُمَزٍ ولُمَزٍ، وتُعَرَّضَ وهُمَزٍ، واشتُطَّ عليه، وعظمُ يسيرُ خطبه، واستُشْنِعَ هَيْنَ سَقَطه، وزهبت محاسنه، وسترت فضائله، وهُتِفَ ونودي بما أَغْفَلَ، فتَنَكَّسُ لذلك هَمَّتَه، وتكلُّ نفسه، وتبرُدُ حميَّته، وهكذا عندنا نصيب من بدأ يحوك شعراً، أو يعمل رسالة، فإنّه لا يفلت هذه الحبال، ولا يتخلص من هذه النصب، إلّا الناهض الفائت، والمطفّف المستولي على الأمد" (1).

" فهذه العبارات وإن يكن قالها في الحكم على قضية عامّة؛ إلّا أنّ كلّ واحدةٍ منها تعبّر تعبيراً مريراً عن نفس موجعة، وتكشف عن حالة خاصّة، وتصور ما يحسُّ به إزاء أولئك الذين ما يزالون به يقذفونه ويتعقبونه، ويطاردونه، حتى كادت تضيق به الأندلس" (2).

(1) ابن حزم ، رسائله (رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها) ، ج2، ص177- 178.

(2) الحاجري، ابن حزم، ص182.

ومن هنا كان لا بدّ له أن يخرج عن قصر البونت، ولا يتّضح السبب الرئيس

لخروجه عنها إلا أن يكون وفاة صاحبها أبي عبد الله سنة 434 هـ⁽¹⁾.

فانطلق من هذه البلدة، ملتمساً من يزود عنه، ويذبُّ عن حوزته - على حد

تعبيره - فنزل في ميورقة ، وصاحبها حينئذ هو أبو العباس أحمد بن رشيق⁽²⁾ الكاتب

الفاضل، ذو المآثر العالية، والفضائل السامية، والأعمال الزاكية، والسعي المحمود...

المشغوف بالعلم، وتقديم الحسنات، شغف غيره بالأموال واللذات⁽³⁾.

ولم يكن هذا المديح الذي يكيّله ابن حزم للرجل نفاقاً أو تملقاً، بل هو صادرٌ

عن إنسان شديد الوفاء، لا ينكر أيادي غيره عليه، فقد كان هذا الرجل ممن ناصرهُ،

وأوجد له الملجأ الآمن، يقول مخاطباً أحد أصدقائه: " والله يا أخي لقد حماني الله

تعالى، وما أعدمني قطُّ من مخالفٍي مقالتي من يزود عني ، ويذبُّ عن حوزتي أشدَّ

الذبِّ ، وإنّي لأدعو الله لهم مدى عمري... ومنهم أبو العباس أحمد بن رشيق

الكاتب... " (4).

(1) انظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، 3 / 215 ، وابن الخطيب (لسان الدين)، أعمال الأعلام، ص208.

(2) أحمد بن رشيق الكاتب، أبو العباس، طلب الأدب فبرز فيه، ونسق في صناعة الرسائل، مع حسن الخطّ المتفق على نهايته، ومال إلى الفقه والحديث، قدّمه أبو الجيش مجاهد العامريُّ على كلّ من في دولته، فكان ينظر في أمور الجهة التي كان فيها نظر العدل والسياسة، ويجمع العلماء والصالحين، ويصلح الأمور جهده، مات بعد الأربعين وأربعمئة عن سنٍّ عالية. انظر : الحميدي، الجذوة، ص 114 - 115، وابن الأبار، الحلة السعيداء، 2 / 128 - 129، وهو ينقل عن الحميدي.

(3) ابن حزم، رسائله (رسالة البيان عن حقيقة الإيمان) ج3، ص189.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص189.

وفي ظلّ أبي العبّاس هذا جرت بين ابن حزم وبين فقهاء المالكيّة مناظراتٌ ومحاوَرات، وفي مجلسه التقى بأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، فانعقدت بينهما المناظرات (1).

ولكنّ الأمر لم يقف عند الخصومة العلميّة، والخلاف الفقهي، بل تعدّاه إلى ما هو خارج هذا الإطار، وابن بسام يصوّره قائلاً: "... حتى استُهدفَ لفقهاء وقته، فتمالؤوا على بغضه، وردّوا قوله، وأجمعوا على تضليله، وشنّوا عليه، وحذّروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه، والأخذ عنه، فطفق الملوك يقصونه عن قريبهم، ويسّرونه عن بلادهم" (2).

ولذلك، لم أمام هذه الدسائس، وهذا الكيد عند الخاصّة والعامة، إلا أن يرتحل عن هذه المدينة، وينتقل إلى أخرى، لعلّه يجد فيها ملاذاً يحميه، أو ملجأً يؤويه. ويبدو أنه اختار إشبيلية لتكون مهاجرة هذه المرّة، وكان عليها حينئذ رجلٌ وصف بأنه "أوحد عصره شهامةً وصرامة، وشجاعة قلب، وحدة نفس، كانوا يشبهونه بأبي جعفر المنصور، من ملوك الطوائف" (3).

ذلك هو أبو عمرو عباد بن إسماعيل، الذي تلقّب أولاً بفخر الدولة، ثم بالمعتضد بالله، وقد كان لأهل الأدب عنده سوق نافقة، وله في ذلك همّة عالية (4).

(1) انظر: ابن الأبار، الحلة السيرة، 2 / 128 .

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص168.

(3) المراكشي (عبد الواحد)، المعجب، ص152 .

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، 3 / 284.

فضلا عن " اصطحاب الأحرار، واستجلاب ذوي الأخطار، يُنصِبُ لذلك

الحبائل ، ويُعْمَلُ فيه الحقُّ والباطل (1).

ولذلك فليس ببعيد أن يكون المعتضد هو الذي زَيَّن لابن حزم أن يقصد إشبيلية

، بعد أن نبا به كلَّ مكان نزل به، وبرم به كلُّ أمير نزل بجواره... واستأنف هناك

مرحلة جديدة من حياته التي وقفها على العلم والدرس ، وعلى الدعوة إلى مذهبه ، ولم

تزده الأيام ، ومحاربة الفقهاء له ، وتعرُّضه للكيد والأذى بسببه ، إلا إيماناً به، وتغانياً

في الدعوة إليه، والمجادلة عنه، والمكافحة دونه" (2).

ويبدو أن كتبه وجدت قلباً مقبلة، وآراءه لقيت آذاناً صاغية، فاشتدت وطأة

الدسِّ عليه والكيد له عند المعتضد، الذي كان بطبيعته ذا مزاج متقلب، سريع التحوُّل "

يأخذ بالظنَّة، لم يثبت له قائمٌ ولا حصيد ، ولا سَلَمٌ عليه قريبٌ ولا بعيد... متهورٌ

تتحاماه الدهاة ، وجبَّارٌ لا تأمُّهُ الكماة... حرُّهُ سَمٌّ لا يُبطئ ، وسهمٌ لا يخطئ ،

وسلِّمه شرٌّ غير مأمون ، ومتاعٌ إلى حين" (3).

والنتيجة المحتومة لاجتماع هذين العنصرين – وشايات الفقهاء ، ومزاج

المعتضد – هو تشويه صورة ابن حزم لديه ، وبالتالي سخطه عليه ، وانقطاع تلك

العلاقة بينهما.

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق4، م1، ص133.

(2) الحاجري، ابن حزم، ص201.

(3) ابن بسام ، الذخيرة ، ق 2 ، م 1 ، ص24 ، وانظر : ابن دحية ، المطرب ، ص 12 ، وابن الأثير، الحلة السرياء، ج2، ص39-40.

وهنا وجد ابن حزم - وقد أخذت منه السنين مأخذها، واشتعل منه الرأس شيئاً

- أن من الخير له أن يخلد إلى الراحة، في مكان لا يضايقه فيه أحد، ويستطيع أن

ينكب فيه على التأليف والدرس حتى يلاقي وجه ربه.

وهكذا انتهى به المطاف إلى " منقطع أثره ، بتربة بلده... وأخذ يبيت علمه فيمن

ينتابه من عامة المقتبسين منه ، من أصاغر الطلبة ، الذين لا يخشون فيه الملامة ،

يحدثهم ، ويفقههم ، ويدارسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ،

والإكثار من التصنيف " (1).

ويبدو أن نفس المعتضد لم تشتت بخروج ابن حزم عن إشبيلية، أو أن عوامل

الحقد والبغضاء ظلت تدب دبيبها في رأسه، حتى أمر بكتب ابن حزم " فأحرق بعضها،

ومرقت علانية... ولا يزيد هذا مؤلفها إلا بصيرة في نشرها، وجدالاً للمعاند فيها" (2).

ويرى أحد الباحثين (3) أن سبب تغير المعتضد عليه وإحراقه كتبه، هو تعريضه

بتلك الخدعة التي قام عليها حكم بني عباد بإشبيلية، وذلك أن والد المعتضد، وهو

القاضي محمد بن إسماعيل، قد ادعى أنه عثر على هشام بن الحكم الاموي، وأقامه

على الخلافة كسابق عهده في قرطبة، وجعل ابنه إسماعيل على حجابته، ولذلك لم

يجد ابن حزم الجريء في الحق إلا أن يقول: " أخلوقاً لم يقع في الدهر مثلاً: ظهر

رجلٌ حصريٌّ بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المؤيد، وادّعى أنه

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص168.

(2) المصدر نفسه، ق1، م1، ص168.

(3) هو د. طه الحاجري، ابن حزم، ص207 - 208.

هو، فبويع له، وخطب له على جميع منابر الأندلس، في أوقات شتى، وسفكت الدماء، وتصادمت الجيوش في أمره" (1).

على كل حال، فقد كانت بلدته هي آخر محطات حياته، حيث أقام فيها، حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى " عشية يوم الأحد، لليلتين بقيتا من شعبان سنة 456هـ، فكان عمره- رحمه الله- إحدى وسبعين سنةً وعشرة أشهر، وتسعة وعشرين يوماً" (2).
وكانه كان يستشعر هذه اللحظة التي لا مفرّ منها حين قال:

كَأَنَّكَ بِالزُّوَارِ لِي قَدْ تَبَلَدَرُوا وَقِيلَ لَهُ مِ أودى عَلِيٌّ بِنُ أَحْمَدِ
فيا رَبِّ مَحْزُونٍ هُناكَ وضاحِكٍ وكم أَدْمَعُ تُذْرى وَخَدٌّ مُخَدَّدِ
عفا الله عني يومَ أَرَحَلُ ظاعِناً عَنِ الأهلِ، مَحْمُولاً على ظَهْرٍ مَلْحَدِ
وَأَتْرَكَ ما قَدْ كُنْتُ مُغْتَبِطاً بِهِ وألقى الذي آسَتْ مِنْهُ بِمَرْصَدِ
فواراِحتي إِنْ كانَ زادي مُقَدِّماً ويا نَصَبِي إِنْ كُنْتُ لَ مِ أَتْرَوْدِ (3)

(1) ابن حزم، رسائله، (رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء) ج2، ص97.

(2) ابن بشكوال، الصلّة ، ج2، ص396.

(3) ابن حزم، ديوانه، ص96.

المبحث الثاني

الظاهرية والطوق :

نُعدُّ هاتان المحطتان ، من أهم محطات حياة ابن حزم ، فقد رسمت الأولى حياته منذ اللحظة التي اعتنق فيها المذهب الظاهري، إلى أن أسلم الروح لباريها، أما الثانية ، فتعدُّ إشارة واضحةً إلى المنهج الذي سيتخذه هذا العالم في مؤلفاته فيما بعد، إذ إنّ تناول عاطفة الحبّ في بواكير التجربة الكتابية، بكلّ تلك الجرأة والصراحة، يعدُّ خروجاً على القاعدة أو المألوف، وبخاصةٍ في تلك البيئة التي عاش فيها ابن حزم. أما فيما يختصُّ بهذه الدراسة، فإنّ تناول هاتين المحطتين معاً، يهدف إلى تحقيق قضية مهمة في دراسة شعره، وهي: هل كان اعتناقه للمذهب الظاهري، قبل تأليف طوق الحمامة، أم بعده؟ وبناءً على ذلك، هل يمكن أن نتلمّس آثار الظاهرية في شعره الغزلي؟

أولاً : ظاهريته وأصولها :

ليس إيتارُ مذهبٍ فقهيٍّ دون آخر، أو التحوّل من رأيٍ شرعيٍّ إلى رأيٍ مخالفٍ ؛ عبثاً يتلَهَّى به أتباع هذه المذاهب، أو هكذا ينبغي أن يكون ⁽¹⁾، فاختيار أحد الفقهاء لمذهب معيّن، أو اتخاذه لتعاليمه منهجاً يسير على هديه في حياته، يدلُّ أكبر الدلالة

(1) ليس ما نراه في هذه الأيام من فوضى في هذه الناحية، دليلاً على عدم صحة هذه المقولة؛ ذلك أنّ الانتكاسة الفكرية في زماننا، قد أصابت بشرها كلّ جانب، حتى حملة العلم الشرعي، إلّا مَنْ رحمَ ربي.

على عقله ، ويصوّر كَيْفِيَّةَ تفكيره ، وقدرته على تمييز الآراء، واصطفاء الأفضل له ولأُمتِه ، وقد قيل " اختيار الرجل قطعةً من عقله".

وفي الأندلس ؛ التي كان المذهب المالكي هو السائد عند معظم فقهاءها ، يُعدُّ الخروج على هذا المذهب جُنْحَةً أو وقوعاً في المحذور، وبخاصةٍ إذا وافق هذا الخروج نقْدً للمذهب أو لأحد أئمتِه ، و كانت تلك خطيئة ابن حزم التي طبعت حياته وشخصيته بطوابع تُلَمَسُ في مؤلفاته وآثاره.

وقد كان الأقربُ إلى المعقول في هذا الوزير ابن الوزير ، وهذا السياسيُّ اللوح ، أن لا يخوض في لَجَّةِ الفقه ، ولا يدخل في غماره ، أو يواجه تيّاره، ولكنَّ كلَّ أحداث عصره ، وكلَّ صفاته النفسيَّة ، وأخلاقه الدينيَّة تشير عليه بالاتجاه نحو الفقه، الذي ظلَّ إلى حدٍّ ما ، المصدر الذي تؤوّل إليه الخاصَّة والعامة فيما يهتمُّها من أمور حياتها.

وأما قصَّة انصرافه إلى الفقه، واستبحاره في طلبه، فإنَّ ياقوت الحمويّ يقصُّ علينا حادثةً، ربما كانت تثير الغرابة في سبب تعلُّم ابن حزم الفقه، وهي " أنه شهد ذات يوم جنازة لرجلٍ كبيرٍ من إخوان أبيه، فدخل المسجد قبل صلاة العصر والحفل فيه، فجلس ولم يركع، فقال له أستاذه - يعني الذي ربّاه- بإشارة - أن قم فصلّ تحية

المسجد، فلم يفهم، فقال له بعض المجاورين له: أبلغت هذه السنّ ولا تعلمُ أن تحيّة

المسجد واجبة؟⁽¹⁾ وكان قد بلغ حينئذٍ ستة وعشرين عاماً.

قال: فقمّت وركعتُ وفهمتُ إذن إشارة الأستاذ إليّ بذلك، قال: فلما انصرفنا من

الصلاة على الجنازة إلى المسجد، مشاركةً للأحياء من أقباء الميّت، دخلتُ المسجد

فبادرت بالركوع، فقبل لي: اجلس، اجلس، ليس هذا وقت صلاة⁽²⁾، فانصرفت عن

الميّت وقد خزيْتُ، ولحقني ما هانت عليّ به نفسي، وقلتُ للأستاذ: دُلّني على دار

الشيخ الفقيه المشاور أبي عبد الله بن دحون⁽³⁾ فدُلّني، فقصدته من ذلك المشهد،

وأعلمته بما جرى فيه، وسألتهُ الابتداء بقراءة العلم، واسترشدتهُ فدُلّني على كتاب

"الموطأ" لمالك بن أنس رحمه الله فبدأت به عليه قراءة من اليوم التالي لذلك اليوم، ثم تتابعت

قراءتي عليه وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام، وبدأت بالمناظرة⁽⁴⁾.

(1) قال ابن رشد المالكي الأندلسي: " والجمهور أنّ ركعتي دخول المسجد مندوبٌ إليهما من غير إيجاب، وذهب أهل الظاهر إلى وجوبهما !! " بداية المجتهد" 2 / 456 ، باب ركعتي دخول المسجد .

(2) قال ابن رشد: " اتفق مالك والشافعي أنه يقضي الصلوات المفروضة في هذه الأوقات، وذهب الشافعي إلى أن الصلوات التي لا تجوز في هذه الأوقات هي النوافل التي تفعل لغير سبب، وأنّ السنن مثل صلاة الجنازة تجوز في هذه الأوقات ، ووافقه مالك في ذلك بعد العصر وبعد الصبح : أعني في السنن ، وخالفه في التي تفعل لسبب مثل ركعتي المسجد فإنّ الشافعي يجيز هاتين الركعتين بعد العصر وبعد الصبح، ولا يجيز ذلك مالك " المصدر نفسه ، 2 / 149 ، باب الأوقات المنهي عن الصلاة فيها .

(3) ليس من شيوخ ابن حزم من كنيته أبو عبد الله بن دحون ، والظاهر انه خطأ من ياقوت ، ولكن هناك أبا محمد عبد الله بن يحيى بن أحمد بن دحون ، ذكره ابن حزم في الطوق ، ص 264 ، ووصفه بأنه " الذي عليه مدار الفتيا بقرطبة " . وكان من جلة الفقهاء وكبارهم ، عارفاً بالفتوى ، حافظاً للرأي على مذهب مالك وأصحابه، عارفاً بالشروط وعللها ، بصيراً بالأحكام ، مشاوراً فيها ، عُمراً وأسناً وانتفع الناس بعلمه ومعرفته ، توفي في سنة إحدى وثلاثين وأربعمئة . (ابن بشكوال ، الصلة ، 1 / 260)

(4) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 4 / 1652 - 1653.

وهكذا على ما ورد في هذه الرواية؟! كانت بداية ابن حزم مع الفقه، وإن كنا لا نُسلم - على الأقل - بأن هذه الحادثة هي التي أدخلته في عالم الفقه وخلافياته، دون سابق معرفة، أو خلفيّة وثيقة ثابتة، إذ إنّ تربية ابن حزم الأولى - كما أشار في الطوق - اتخذت القرآن الكريم وتعلّمه إحدى ركائزها في تنشئته ⁽¹⁾ وقد رافقه أيضاً طلب الحديث ، حيث بدأ بالسماع قبل الأربعمئة من أحمد بن محمد الجسور ت (401 هـ) ⁽²⁾ ومن المستحيل أن يعرف رواية الحديث ولا يكون قد عرف تحيّة المسجد وحكم أدائها على المسلم ⁽³⁾، وهو في الوقت نفسه، يعرف صلاة الجنازة التي هي قليلة الوقوع ⁽⁴⁾.

المهم أن بداية ابن حزم مع الفقه كانت مبكرة، أو على الأقل، قبل أن يبلغ السادسة والعشرين، وقد اتّجه في أول أمره نحو الفقه المالكي، بحكم أنه المذهب السائد في الأندلس، وقد جاء في الخبر السابق أنه قرأ الموطأ على عبد الله بن دحون، ثم تتابعت قراءته عليه، وعلى غيره من العلماء.

"ولكن يظهر أن ابن حزم القارئ الباحث قد اطّلع على نقد محمد بن إدريس الشافعي لمذهب الإمام مالك، وإن كان شيخه... ولا بدّ أنه قرأ كتاب "اختلاف مالك"... فانتقل من المذهب المالكي إلى المذهب الشافعي، فإنّ ذلك يُرضي نزعة الفكريّة،

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 166 .

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، ص 29.

(3) محمد أبو زهرة، ابن حزم، ص 28.

(4) وهَم الطاهر مكي حين ظنَّ أن ابن حزم قد أخطأ في صلاة الجنازة، انظر : دراسات عن ابن حزم، ص 77.

ورغبته الشديدة في الانتقال الفكري، والتحرّر من كلّ القيود، إلا ما كان من صاحب الشريعة ﷺ (1).

ولكنّه لم يلبث إلا قليلاً في المذهب الشافعي، حتى رأى فيه ما رآه داوود الأصبهاني مؤسس المذهب الظاهري، حيث وجد أنّ الأدلّة التي ساقها الشافعي لإبطال الاستحسان هي التي تبطل القياس (2).

وربما كان لتلمذته على أبي الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني، الذي كان يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر (3) ربما كان له أثره في اتجاه ابن حزم نحو المذهب الظاهري (4) وربما كان من ذلك أيضاً ما كان يضمّره من إعجاب وإكبار للقاضي أبي الحكم منذر بن سعيد البلوطي (5) الذي كان داوودي المذهب قوياً على الانتصار له (6).

إنّ، اختار ابن حزم هذا المذهب نتيجةً لظروف فكريّة وتاريخيّة، ترجع في أصلها إلى عاملين كبيرين " يتّصل أحدهما بمزاجه الشخصي ، ويتّصل الآخر بالبيئة الدينيّة وما يداخلها " (7).

(1) محمد أبو زهرة، ابن حزم، 31، وانظر أيضاً : عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي، ص89.

(2) المصدر نفسه، ص31.

(3) الحميدي، جذوة المقتبس، ص328 وقال في ترجمته : " فقيه عالم زاهد، ذكره أبو محمد وكان أحد شيوخه "

(4) انظر : الحاجري ، ابن حزم ، ص125، وأبو زهرة ، ابن حزم، ص234، وعويس ، ابن حزم الأندلسي ، ص85-86.

(5) " ولي قضاء الجماعة بقرطبة ، كان عالماً فقيهاً ، وأديباً بليغاً ، وخطيباً مصقفاً " الحميدي، الجذوة ، ص326.

(6) ابن حزم، رسائله (رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها) ج2، ص179.

(7) الحاجري، ابن حزم، ص120

فقد استكمل عُدَّة الفقيه القادر على الجدل والمناظرة، بما حصَّلَهُ من العلوم،
حتى صار صاحبَ ثقافةٍ واسعة، وإطلاّعٍ عميقٍ على آراء أهل المذاهب المختلفة،
عالمًا بأصولها وفروعها، قادراً على نقدها والبصرِ بمختلفها، مما جعله شديد الثقة
بنفسه، معتدّاً بها، معجباً بمواهبها.

ويرى د.الحاجري أنّ أحد أسباب انصرافه إلى الظاهرية، أنّه " كان رجلاً سيئ
الظنّ بالناس ، وسوء الظنّ صفةً أصيلةً عنده... ولسوء الظنّ ما له من أثر في الحكم
على الأشياء عامّةً، من تجسيم للعيوب، وتكبير الهتات، والنظر إلى الأعمال من جهةٍ
بعينها، تفرضها هذه النزعة" (1).

وكان إلى جانب هذه الصفات الذاتية التي يتمتع بها ابن حزم، حياة اجتماعية،
تعرّضت للفساد وانتشر فيها الظلم، وأكل أموال الناس بالباطل ؛ فتسلّط الحكام على
رعاياهم، يبتزّون أموالهم، ويفرضون المكوس على رقابهم، ويستعملون اليهود في أخذ
الجزية والضريبة من أهل الإسلام، ويمكنون النصارى من حرّم المسلمين وأبنائهم
ورجالهم، ويمعنون في التكيل بمخالفهم، كلّ ذلك بما يوفره لهم بعض الفقهاء الذين
ارتبطت أقلامهم بحبال صوت جلاله الأمراء، فأخذوا يُعدّون لهم فتاوى جاهزة عند
الحاجة ، سوّغت لهم كل ما كانوا يقترفونه من مآثم باسم الدين (2).

(1) الحاجري ، ابن حزم ، ص 123 - 124.

(2) انظر : محمد عبد الله عنان، ابن حزم الفيلسوف الذي أرخ لمجتمع الطوائف، مجلة العربي، ج 68، الكويت،
1986، ص 80-85.

وتنبّه ابن حزم إلى أمثال هؤلاء الفقهاء الذين أصبحوا لدى الرؤساء " ما بين
أكَلٍ من حلوائهم ، وخابِطٍ في أهوائهم " على حدّ قول ابن حيّان ⁽¹⁾ فحمل عليهم حملةً
عنيفةً ، فأظهر للناس سوءاتهم ، وكشف للسائلين حقيقتهم ، حين يقول في رسالته "
التلخيص لوجوه التخليص " : "... وعمدة ذلك أنّ كلّ مدبّر مدينةٍ أو حصنٍ في شيءٍ
من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها ، محاربٌ لله تعالى ورسوله ، وساعٍ في الأرض
بفساد ، والذي ترونه عياناً من شنّهم الغارات على أموال المسلمين من الرعيّة التي
تكون في ملك من ضارّهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون
على أهلها، وأنّهم ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين ، مسلّطون لليهود
على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون
بضرورةٍ لا تبيح ما حرّم الله عزّ وجلّ ، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيهم، فلا
تغافلوا أنفسكم، ولا يغرّتكم الفساق، والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على
قلوب السباع ، المزيّنون لأهل الشرّ شرّهم ، الناصرون لهم على فسقهم " ⁽²⁾.
ولكنّ، ما الذي مكّن هؤلاء الفقهاء من التحكّم بالفقه، وتوجيهه بحسب الوجهة
التي يرتضيها الحكام ؟ إنّه القياس ، وما إليه من الاستحسان ، الذي أصبح مركباً
ذلولاً ، استطاع به جماعةٌ من الفقهاء أن يوائموا بين أحكامهم وفتاواهم ، وبين
مقتضيات الحياة الفاسدة ، التي اطّرحت فيها مبادئ الخلق والضمير اطّراحاً ،

(1) المقرّي ، نفح الطيب ، ج4 ، ص453 .

(2) ابن حزم ، رسائله (رسالة التلخيص لوجوه التخليص) ج3 ، ص173 .

وَمُسَخَّتْ فِيهَا كُلُّ أَصُولِ الدِّينِ وَآدَابِهِ مَسْخَأً ، وَأَصْبَحَ الرَّجُلُ الْعَاقِلُ فِيهَا هُوَ مِنْ حَمَلَةٍ كُلُّ بَلَدٍ ، وَنَفَقَ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ ، كَمَا يَقُولُ أَبُو الْمَغِيرَةِ بْنُ حَزْمٍ!! (1) " فَلَمْ يَقِفِ الْقِيَاسُ ، وَالِاسْتِحْسَانُ ، وَاعْتِبَارُ الْمَصْلَحَةِ عِنْدَ الْحُدُودِ الَّتِي وَضَعَتْ لَهَا ، بَلِ اتَّسَعَ فِيهَا ، وَتُسَوِّحُ فِي رِعَايَةِ الشَّرُوطِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَيْهَا..." (2).

وَمِنْ هُنَا كَانَ رَفْضُ ابْنِ حَزْمٍ لِلْقِيَاسِ ، وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَصُولِ الَّتِي تَخْرُجُ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ عَمَّا جَاءَتْ عَلَيْهِ ، لِيَتِمَكَّنَ كُلُّ صَاحِبٍ هَوًى مِنْ لِيٍّ عُنُقُهَا إِلَى النَّاحِيَةِ الَّتِي يَرِيدُ ، وَمِنْ هُنَا أَيْضاً وَضَعَ الْأَصُولَ الصَّحِيحَةَ - فِي رَأْيِهِ - الَّتِي يَنْبَغِي الرُّكُونُ إِلَيْهَا ، وَالاعْتِمَادُ عَلَيْهَا فَقَطْ دُونَ غَيْرِهَا ، لِاسْتِخْرَاجِ الْأَحْكَامِ ، وَاسْتِنْبَاطِ الْأَدَلَّةِ، دُونَ تَأْوِيلٍ أَوْ تَعْلِيلٍ ، أَوْ دَفْعٍ لِلنَّصِّ إِلَى شَفَا الْأَحْتِمَالَاتِ وَالتَّرْجِيحَاتِ الَّتِي لَا تَنْتَهِي . وَكَذَلِكَ فَقَدْ وَضَّحَ ابْنُ حَزْمٍ الْأَصُولَ الَّتِي يَعْتَدُّ بِهَا تَوْضِيحاً قَاطِعاً ، حِينَ قَالَ : " وَجُمْلَةُ الْخَيْرِ كُلُّهُ أَنْ تَلْزَمُوا مَا نَصَّ عَلَيْهِ رَبُّكُمْ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، لَمْ يَفْرِطْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ، تَبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَمَا صَحَّ عَنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ ، بِرَوَايَةِ الثَّقَاتِ مِنْ أَيْمَةِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مُسْنِداً إِلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَهُمَا طَرِيقَانِ يُوَصِّلَانِيكُمْ إِلَى رِضَا رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ" (3).

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص129.

(2) الحاجري، ابن حزم، ص122.

(3) ابن حزم، الفصل ، ج1، ص 321 .

ويضيف إلى القرآن والسنة مصدراً آخر ، وهو إجماع الصحابة رضي الله عنهم

فقط ، ولا يجوز أن يُجمع أهل عصرٍ بعدهم على خطأ⁽¹⁾.

ونصوص القرآن والسنة واضحة الدلالة على ما فيها ، ولذلك " فلا يحلّ لأحدٍ

أن يُحيلَ آيةً عن ظاهرها ، ولا خبراً عن ظاهره، لأنّ الله تعالى يقول "بلسانٍ عربيٍّ

مبين" ⁽²⁾ وقال تعالى ذاماً لقوم: "يحرّفون الكلم عن مواضعه" ⁽³⁾ ومن أحوال نصّاً عن

ظاهره في اللغة بغير برهانٍ من آخر، أو إجماع ، فقد ادّعى أنّ النص لا بيان فيه ،

وقد حرّف كلام الله تعالى ووحيه إلى نبيّه ﷺ وهذا عظيمٌ جداً ، مع أنّه لو سلّم من

هذه الكبائر لكان مُدّعياً بلا دليل ، ولا يحلّ أن يُحرّف كلام أحد من الناس ، فكيف

كلام الله تعالى ، وكلام رسوله ﷺ ، الذي هو وحيٌ من الله تعالى؟ ⁽⁴⁾.

وبما أنّ هذا المذهب الذي ارتضاه ابن حزم لنفسه ، يتّخذ الكتاب والسنة

وإجماع الصحابة المصادر الوحيدة لاستنباط الأحكام الشرعيّة ؛ فلا مكان عنده لتقليد

أحد ، بل إنّ دعا دعوةً قويّةً لمنع التقليد في أيّ ناحية من نواحي الدين ، وعدّ التقليد

بدعةً محرّمة ، يجب أن تُردّ ، ولذلك يقول: " والتقليد حرامٌ ، ولا يحلّ لأحدٍ أن يأخذ

بقول أحدٍ بلا برهان ⁽⁵⁾.

(1) ابن حزم، النبذة الكافية، ص20-21.

(2) الشعراء، آية 195.

(3) المائدة، آية 13.

(4) ابن حزم، النبذة الكافية، ص36.

(5) المصدر نفسه، ص70.

ولا شكَّ أنَّ ذلك يتفق مع نزعة ابن حزم الحرِّ ، الذي يريد دائماً أن يُحلَّق في

سماء الكتاب والسنة من غير أيِّ حواجز من الفكر تقف دون ذلك⁽¹⁾.

كانت تلك أهمَّ الأسس التي أقام عليها ابن حزم دعوته ، وهي التي واجه بها

فقهاء عصره ، يجادل ويناضر " على استرسال في طباعه ، ومذلل بأسراره ، واستناد إلى

العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده ، ليبيننه للناس ولا يكتمونه"⁽²⁾.

ثم كان أن اتخذ هذا المذهب منهج حياةٍ ، وأساساً يقيم عليه آراءه الفقهيَّة ،

وأحكامه الشرعيَّة ، سواء في الفتيا، أو في مقارعة أهل الفرق والمذاهب الإسلاميَّة، أو

الملل والديانات غير الإسلاميَّة ، كما كان لهذا المذهب أيضاً تأثيرٌ في توجيه آرائه في

اللغة والأدب⁽³⁾.

وقد نادى في غير موضع من شعره بمنهجه الظاهري ، ودعا إلى الأخذ بالنصِّ

كما جاء عن الله عزَّ وجلَّ أو عن النبي ﷺ ورفض الاعتداد بالرأي والقياس

مصدرين من مصادر الشريعة ، ومن ذلك قوله:

أُشْهِدُ اللَّهَ وَالْمَلَائِكَةَ أَنِّي لَا أَرَى الرَّأْيَ وَالْمَقَايِيسَ دِيناً

حَاشَ لِلَّهِ أَنْ أَقُولَ سِوَى مَا جَاءَ فِي النَّصِّ وَالْهُدَى مُسْتَبِيناً

(1) أبو زهرة، ابن حزم ، ص236.

(2) هذا من عبارة ابن حيان، عند ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص168.

(3) انظر: عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي، ص 96 وما بعدها ، والحاجري ، ابن حزم، ص 126، وحامد الدباس، فلسفة الحب والأخلاق عند ابن حزم، ص39-40.

كيف يخفى على البصائر هذا وهو كالشمس شهرةً وبقينا؟⁽¹⁾

وقال أيضاً:

"قالوا تحفظ، فإن الناس قد كثرت أقوالهم؛ وأقويل العدا محن

فقلت: هل عيهم لي غير أنني لا أقول بالرأي؛ إذ في رأيهم فتن

وأنني موع بالنص، لست إلى سواء أنحو، ولا عن نصره أهن

لا أنتني نحو آراء يقال بها في الدين، بل حسب القرآن والسنن⁽²⁾

وقال أيضاً:

من عذيري من أناس جهلوا ثم ظنوا أنهم أهل النظر

وطريق الحق نهج مهيع مثل ما أبصرت في الأفق القمر

فهو للإجماع والنص الذي ليس إلا في كتاب أو أنز⁽³⁾

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 205/18.

(2) ابن حزم، ديوانه، ص 63، وإحسان عباس، عصر سيادة قرطبة، ص 382.

(3) ابن حزم، ديوانه، ص 94.

ثانياً : طوق الحمامة

يعدُّ طوق الحمامة أكثر أعمال ابن حزم شهرةً وسيرورةً في الوسط الأدبي المعاصر ، بل يكاد يقترن ذكر ابن حزم بذكر هذا الكتاب، ولذلك فقلّما تعرّض أحد الدارسين لحياة ابن حزم إلا تناول هذا الكتاب من قريبٍ أو بعيدٍ ، بإشارةٍ عابرةٍ، أو بدراسةٍ مفصّلةٍ.

وقد كثرت الدراسات التي انصرفت إلى طوق الحمامة خاصة ، فتناولت شكله ومضمونه ، وحلّلت أسلوب المؤلف، ودرست صفاته النفسية والخُلقية ، وعرّضت لأفكاره ومبادئه ونظراته إلى الحياة والناس ، وربما قارنته بغيره من الدّراسات التي خُصّصت لدراسة الحبِّ في الأدب العربي⁽¹⁾.

وحاول عددٌ من هؤلاء الدارسين أن يحدّد المرحلة الزمنية التي ألّف فيها الطوق - بصفته يدلُّ على ملامح حياة ابن حزم في تلك المرحلة - بناءً على إشاراتٍ وردت فيه ، وتكاد الدّراسات كلّها تُجمّع على مرحلةٍ معيّنة ، وهي المرحلة التي أعقبت مقتل المستظهر ، وأسر ابن حزم لدى المستكفي الخليفة الجديد ، ثم خروجه عن قرطبة بعد

(1) من هذه الدراسات:

أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، طوق الحمامة، مجلة العرب، ج 3، 1968، ص227-242، وج8، 1969، ص713-733، وإحسان عباس، دراسة في الحب عند ابن حزم، مجلة شؤون عربية، ع 3، تونس، أيار 1981، ص134-162، وسالم يفوت، الأسس الميتافيزيقية لنظرية الحب عند ابن حزم، مجلة تكامل المعرفة، ع7 و8، 1982-1983، ص11، والظاهر مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ومصطفى عبد الواحد، دراسة الحب في الأدب العربي، ج2، ص219-309.

الإفراج عنه ، وتقع هذه الفترة تحديداً ما بين سنة 417 هـ وسنة 418 هـ ⁽¹⁾ وتفصيل ذلك كما يأتي .

يخبرنا ابن حزم في مقدمته للطوق عن الشرارة التي دفعت به إلى تأليف هذا الكتاب ، حين يقول مخاطباً صديقه: " فَإِنَّ كِتَابَكَ قَدْ وَرَدَنِي مِنْ مَدِينَةِ الْمَرْيَةِ إِلَى مَسْكَنِي بِحَضْرَةِ شَاطِبَةِ، تَذَكُّرُ مِنْ حَسَنِ حَالِكَ مَا يَسُرُّنِي... ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَطَّلَعَ عَلَى شَخْصِكَ ، وَقَصَدْتَنِي بِنَفْسِكَ ، عَلَى بَعْدِ الشَّقَّةِ، وَتَنَائِي الدِّيارِ، وَشَحْطِ الْمَزَارِ، وَطُولِ الْمَسَافَةِ ، وَغَوْلِ الطَّرِيقِ... وَكَانَتْ مَعَانِيكَ فِي كِتَابِكَ زَائِدَةً عَلَى مَا عَهَدْتَهُ مِنْ سَائِرِ كِتَابِكَ ، ثُمَّ كَشَفْتَ لِي بِإِقْبَالِكَ غَرَضَكَ ، وَأَطْلَعْتَنِي عَلَى مَذْهَبِكَ ... وَكَلَفْتَنِي - أَعَزَّكَ اللَّهُ- أَنْ أَصْنِفَ لَكَ رِسَالَةً فِي صِفَةِ الْحَبِّ وَمَعَانِيهِ وَأَسْبَابِهِ وَأَعْرَاضِهِ ، وَمَا يَقَعُ فِيهِ وَلَهُ ، عَلَى سَبِيلِ الْحَقِيقَةِ ، لَا مَتَرِيّاً وَلَا مَفَنّاً ... " ⁽²⁾.

بذلك كان تأليف الطوق استجابة لرغبة صديق له ، أرسل إليه كتاباً من مدينة المريّة ، ثمّ زاره بنفسه في مكان إقامته بمدينة شاطبة .

ثمّ إذا انتقلنا إلى الطوق مثبته ، نجده أيضاً يتحدّث عن صديق له كانت داره المريّة ، فعنّت له حوائج إلى شاطبة ، فقصدها، ونزل في منزل ابن حزم مدّة إقامته بها ، فلم يكن إلّا حينّ لطيف بعد نزوله عند ابن حزم ، حتّى نشبت الفتنة بين أبي الجيش مجاهد صاحب الجزائر ، وبين خيران صاحب المريّة ، فانقطعت الطرق بسبب

(1) انظر: الحاجري، ابن حزم، ص 154، ودراسة إحسان عباس على الطوق ، ص 39، ومحمد أبو زهرة، ابن حزم، ص 147، وعبد الحليم عويس ، ابن حزم الأندلسي، ص 75، وغيرها من المصادر.

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 84 و 86 .

هذه الحرب ، وتحوميت السُّبُل ، واحتُرِسَ البحرُ بالأساطيل ، فتضاعف كربُ صديقه
إذ لم يجد إلى الانصراف سبيلاً البتة ⁽¹⁾ وكانت هذه الفتنة سنة 417 هـ ⁽²⁾.

والراجع أنّ هذا الصديق هو نفسه صاحب الرسالة التي وردت ابن حزم من
المرية ، يطلب إليه أن يضع له كتاباً في الحب ⁽³⁾.

ومما يزيد التاريخ المرجح لتأليف الطوق تحديداً ، قول ابن حزم في حكم بن
المنذر بن سعيد البلوطي " وحكمُ المذكور ، في الحياة حين كتابتي إليك بهذه الرسالة،
قد كفَّ بصره ، وأسنَّ جدّاً " ⁽⁴⁾ وقد ذكر ابن بشكوال نقلاً عن ابن مدير أنّ وفاة حكم
كانت في نحو سنة عشرين وأربعمئة ⁽⁵⁾.

ويسوق د.الحاجري دليلاً آخر على أنّ الكتاب وُضع في الفترة المذكورة ، وهي
أبيات ساقها ابنُ حزم في الطوق ، قال أثناء إنشادها: " وفي القصيدة أمدح أبا بكرٍ
هشامَ بنَ محمدٍ أخا أمير المؤمنين عبد الرحمن المرتضى رحمه الله " ⁽⁶⁾.

(1) انظر: ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 216 – 217 .

(2) انظر: المصدر نفسه ، ص38 (دراسة المحقق) ، والحاجري ، ابن حزم ، ص154.

(3) انظر: المصدر نفسه ، ص38 (دراسة المحقق) ، هامش (1).

(4) المصدر نفسه ، ص157.

(5) انظر: ابن بشكوال ، الصلة ، 1 / 146 .

(6) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص204 ، ويستفاد من هذا الخبر أيضاً أنّ المرتضى كان قد تُوفي حين تأليف
الطوق لقول ابن حزم : " رحمه الله " وقد قُتل المرتضى سنة 408 هـ .

فهو لم يصف (أبا بكر المعتدّ بالله) بإمارة المؤمنين ، كما وصف أخاه ، فهذه

القصيدة ترجع إلى ما قبل توليه الخلافة في شهر ربيع الأوّل سنة ثمانى عشرة

وأربعمئة ⁽¹⁾ ومن البدهيّ - على ذلك - أن يكون تأليفه للطوق قبل هذا التاريخ .

وهكذا نستطيع القول إنّ ابن حزم وضع كتابه في الفترة الواقعة بين ربيع

الثاني سنة 417 هـ ، وربيع الثاني 418 هـ ⁽²⁾ ولا يُعقل أن يكون قد حرّر كتابه بين

عامي 412 هـ و 413 هـ ، على ما ذهب إليه الطاهر مكي ⁽³⁾.

(1) ابن حزم، رسائله (رسالة ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس) ، ج2، ص203.

(2) الحاجري، ابن حزم، ص 150، وص154، ويقطع بهذا التاريخ ، أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري ، في مقالته حول طوق الحمامة، مجلة العرب ، السنة الثالثة ، ع8 ، الرياض ، 1969 ، ص 713 .

(3) انظر: الطاهر مكي ، دراسات عن ابن حزم ، ص84.

ثالثاً : المذهب الظاهري وتأليف الطوق :

هل كان اصطفاؤه للمذهب الظاهري قبل تأليفه طوق الحمامة أم بعده ؟ في الحقيقة ، لم يتعرض معظم الباحثين لهذا الجانب ، بشكل واضح ومباشر ، سوى د.الحاجري الذي قطع بأن ابن حزم كان ظاهرياً قبل تأليف طوق الحمامة، فحينما عَرَضَ للفترة التي قضاها ابن حزم في قرطبة حين دخلها بعدخروجه عنها، سنة 409هـ⁽¹⁾ رجّح أن يكون اعتناقه للمذهب في هذه الفترة، يقول: " هذا هو ما نرجّحه في فترة اعتناق ابن حزم للمذهب الظاهري، وإن كنّا لا نستطيع أن نفترض لها تاريخاً معيّناً، جاهر فيه باعتناقه له ، ولكنّ الذي نملك أن نقطع به هو أنّ ذلك كان قبل تأليف طوق الحمامة ، في نحو سنة 417هـ.... " ⁽²⁾.

والذي دفعه إلى القطع بذلك ، هو تلك القصّة التي أوردها المقرئ في نفح الطيب ، على أنها من طوق الحمامة ، قال: " قال ابن حزم في طوق الحمامة : إنّهُ مرّ يوماً ، هو وأبو عمر بن عبد البرّ ، بسكة الحطابين بمدينة إشبيلية ، فلقبهما شابّ حسن الوجه، فقال أبو محمّد ، هذه صورةٌ حسنةٌ، فقال له أبو عمر: لم تر إلّا الوجه، فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك ، فقال ابن حزم ارتجالاً :

(1) انظر : ص 20، من هذه الدراسة .

(2) الحاجري ، ابن حزم ، ص 119 .

وذي عَدَلٍ فِيمَنْ سَبَانِي حُسْنُهُ يُطِيلُ مَلَامِي فِي الْهَوَى وَيَقُولُ
أَمِنْ أَجَلٍ وَجْهِ لَاحَ لَمْ تَرَ غَيْرَهُ وَلَمْ تَدْرِ كَيْفَ الْجِسْمُ أَنْتَ عَلِيلٌ
فَقُلْتُ لَهُ: أَسْرَفْتَ فِي اللَّوْمِ فَانْتَدُ فَعَنْدِي رَدٌّ لَوْ أَشَاءُ طَوِيلٌ
أَلَمْ تَرَ أَنِّي ظَاهِرِيٌّ، وَأَنْتَ عَلَى مَا أَرَى، حَتَّى يَقَوْمَ دَلِيلٌ؟⁽¹⁾

قال الحاجري: "ولم نجد هذه القصة في نسخة الطوق التي بين أيدينا ، ولكن ذلك لا يطعن في رواية المقرئ ، إذ كانت هذه النسخة منشورة عن نسخة ، عملت فيها يدُ صاحبها بالحذف والاختيار ، كما هو ظاهر في العبارة التي أثبتتها في نهايتها
"(2) وهي :

"كملت الرسالة المعروفة بطوق الحمامة... بعد حذف أكثر فصولها ، وإبقاء
العيون منها تحسيناً لها ، وإظهاراً لمحاسنها ، وتصغيراً لحجمها ، وتسهيلاً لوجدان
المعاني الغريبة من لفظها ، بحمد الله وعونه ، وحسن توفيقه "(3) .

(1) المقرئ ، نفح الطيب ، ج2، ص556-557.

(2) الحاجري ، ابن حزم ، ص119

(3) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 310 ، ولكن الحاجري لم يُشر - كما ترى - إلى تاريخ نسخ هذه النسخة الوحيدة من الطوق، وهي التي اعتمد عليها جميع من اضطلع بتحقيق الطوق وتاريخ نسخها كما جاء في نهايتها: " وفرغ من نسخها مستهلَّ رجب الفرد سنة ثمانٍ وثلاثين وسبعمئة (738هـ = 1338م) والحمد لله ربَّ العالمين" . فإذا علمنا أنَّ وفاة المقرئ كانت سنة (1041هـ) جعلنا ذلك نذهب إلى أنه اطلع على نسخة وافية من الطوق غير هذه التي بين أيدينا .

وقد ذهب د.إحسان عباس أيضاً هذا المذهب دون تصريح ، حين وجد بعض ملامح المذهب الظاهري في شعر ابن حزم في الطوق ، ولاحظ أنّه يجنح في بعض شعره إلى الهروب من قسوة الظاهر⁽¹⁾.

كما أنّ الرسالة تشير بوضوح ، إلى أنّها وُضِعَتْ بعد اعتقاد صاحبها المذهب الظاهري ، حين يتحدّث عن أولئك الذين يخالفون مقالته ، ويقذفونه بالباطل ، فهو يقول : " وبالوفاء أفتخر في قصيدة لي طويلة أوردتها... وكان سبب قلبي لها أنّ قوماً من مخالفيّ شَرِّقوا بي، فأساؤوا العبث في وجهي، وقذفوني بأنّي أعضدُ الباطل بحجّتي ، عجزاً منهم عن مقاومة ما أوردته من نصر الحقِّ وأهله ، وحسداً لي " ⁽²⁾.

ولا ريب أنّ هذه الحملة التي تعرّض لها ، والتي يشير إليها هنا ، لم تكن إلّا بعد اعتناقه للمذهب الظاهري ، ومجاهرته به ، ودفاعه عنه، ومجادلته الفقهاء دونه. كما أنه منذ بداية كتابه يبيّن منهجه القائم على أسس المذهب الظاهري ، من الأخذ بظاهر النصّ وعدم تقليد أحدٍ ، حيث يقول في مقدّمة الطوق: " والتزمْتُ في كتابي هذا الوقوف عند حدّك، والاقتصار على ما رأيت، أو صحّ عندي بنقل الثقات، ودعني من أخبار الأعراب والمتقدّمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم ،

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص79-80 ، (دراسة المحقق) .

(2) المصدر نفسه ، ص211 .

وما مذهبي أن أنضي مطيّة سواي ، ولا أتحلّى بحلي مستعار والله المستغفر
والمستعان، لا ربّ غيره" (1).

وهذا هو المنهج الظاهري بعينه، الذي يضيق بالتقليد، ولا يعتدّ إلا بالنصّ
الصحيح الثابت عن صاحبه، سواء أكان ثبوته بالمباشرة الشخصية من قبل (الراوي)
أم رواه له الثقات من الأصحاب الذين يؤمن تواطؤهم على الكذب .

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 87 .

المبحث الثالث

موهبة الفنيّة ونشاطه الأدبي :

ابنُ حزم، ذلك الفقيه الظاهريُّ العنيد، الذي بسط هذا المذهب، وناضل دونه، ووضع الكتب في شرحه، وتوضيحه، والتأصيل له ، وخاض دونه مجادلاتٍ عنيفة، وتحمل لأجله متاعبَ جمّة، حتى استوى على سوقه، وبرز بين غيره من المذاهب الفقهية، التي كانت تتوزع ديار الإسلام هنا وهناك، كذلك عُرف ابن حزم بين معاصريه، وبين من ترجم له فيما بعد.

ونسبةُ ابن حزم إلى الفقه نسبةٌ صحيحةٌ بلا ريب؛ ذلك أنّ معظم نتاجه الفكريّ كان يصبُّ في هذه الناحية، بل إنّ أرقى ما وضعه من كتبٍ تدلُّ على مقدرته وتمكنه واستيعابه إنما يدور في هذا الجانب، ويشهد كلّ من تناوله قديماً وحديثاً، على علوّ كعبه في كلّ ما ألّف في علوم الإسلام مثل: المحلّى، والإحكام، والفِصل⁽¹⁾.

ولكنّ ابن حزم كان يتميّز بجانب آخر أيضاً، لفت أنظار الدارسين – وخصوصاً في العصر الحديث – وهو الجانب الأدبي الذي جعله يقف علماً من أعلام الأدب في القرن الخامس الهجري ، وقل أن يتناول أحدُ الحياة الأدبية في تلك الحقبة، دون أن يعرض لابن حزم وأدبه.

(1) انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء 18 / 193-197 ، وأنخل جُنْثَالْت بالْتُنْيا ، تاريخ الفكر الأندلسي (ص 217-229) ، وعبد الحليم عويس ، ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي ، (ص 108-112) .

يقول الحميدي: " وكان له في الأدب والشعر نَفَسٌ واسع ، وباعٌ طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرعَ منه ، وشعره كثير ، وقد جمعناه على حروف المعجم "(1).

ويقول الإمام صاعد: " ولأبي محمدٍ بعد هذا تصنيفٌ وافٍ في علم النحو واللغة، وقسمٌ صالحٌ من قرض الشعر، وصناعة الخطابة "(2).

ويقول ابن بشكوال نقلاً عن صاعد: " كان أبو محمدٍ أجمعَ أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة ، مع توسُّعه في علم اللسان ، ووفور حظه من البلاغة والشعر " (i)

فهذه الروايات تشير بوضوح إلى موهبته الأدبية، سواء أكان ذلك في مجال الشعر، أم في مجال النثر.

فقد كان يرتجل الشعر بسرعةٍ تفوق غيره، ولذلك كثر شعره، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على ثراء الموهبة الشعرية وطواعيتها لديه، بحيث تتجاوب لأي موقف، وبأسرع وقت، وابن حزم نفسه يشير إلى قدرته على قرض الشعر، بضروبه المختلفة، حين يقول: " ولا يظنُّ ظانُّ أنَّ هذا - أي الشعر - عِلْمٌ جهلناه فذممناه، فقد علم من داخلنا، أو بلغه أمرنا، كيف توسَّعنا في رواية الأشعار، وكيف تمكَّنّا من الإشراف على معانيها، وكيف وقوفنا على أفانين الشعر ومحاسنه، ومعانيه وأقسامه،

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، ص 291.

(2) صاعد، طبقات الأمم، ص 99.

(3) ابن بشكوال ، الصلة ، 2 / 395 .

وكيف قوّتنا على صناعته، وكيف تأتّى مقصّده ومقطوعه لنا ، وكيف سهولة نظمهِ علينا في الإطالة فيه والتقصير " (1).

وقد وردت في الطوق الكثير من الإشارات التي تصدّق مقولة ابن حزم الآتية،
وتؤكد امتلاك صاحبها فطرةً شعريّة خصبّة، وبديهة حاضرة، تُسعِفُهُ في الموقف المناسب، ومن ذلك قوله مثلاً: " وإني أذكرُ أني دُعيتُ إلى مجلسٍ فيه بعض من تستحسن الأبصار صورته، وتألّف القلوب أخلاقه ؛ للحديث والمجالسة ، دون منكرٍ ولا مكروه ؛ فسارعت إليه ، وكان هذا سحرًا ، فبعد أن صليت الصُّبح وأخذتُ زِيّي ، طرقتني فكرٌ، فسنحت لي أبياتٌ ومعِي رجلٌ من إخواني ، فقال لي : ما هذا الإطراق ؟ فلم أجبه ، حتى أكملتها ، ودفعتها إليه ، وأمسكتُ عن المسير حيث كنت نويتُ ، ومن الأبيات :

أَرَأَيْكَ حُسْنَ غَيْبُهُ لَكَ تَأْرِيْقُ وَتَبْرِيْدُ وَصَلِ سِرُّهُ فَيَاكَ تَحْرِيقُ
وَقُرْبُ مَزَارٍ يَقْتَضِي لَكَ فُرْقَةً وَشِيكًا، وَلَوْلَا الْقُرْبُ لَمْ يَكُ تَفْرِيقُ
وَلَذَّةُ طَعْمٍ مُعَقَّبٍ لَكَ عَلْقَمًا وَصَابًا، وَفَسَحٌ فِي تَضَاعِيْفِهِ ضَيْقُ (2)

وقوله أيضاً: "ولقد نُعيَ إليّ بعضُ من كنتُ أحب من بلدةٍ نازحة ، فقامتُ فارًّا
بنفسي نحوَ المقابرِ ، وجعلتُ أمشي بينها ، وأقول :

(1) ابن حزم، رسائله (رسالة مراتب العلوم) ج 4 ، ص 69 .

(2) ابن حزم، طوق الحمامة ، 299 - 300 .

دِدْتُ بَأَنَّ ظَهَرَ الْأَرْضِ بَطْنٌ وَأَنَّ الْبَطْنَ مِنْهَا صَارَ ظَهْرًا

وَإِنِّي مِتُّ قَبْلَ وَرُودِ خَطْبِ أَتَى فَأَثَارَ فِي الْأَكْبَادِ جَمْرًا

وَأَنَّ دَمِي لِمَنْ قَدْ بَانَ غُسْلٌ وَأَنَّ ضُلُوعَ صَدْرِي كُنَّ قَبْرًا (1)

لا، بل أزيد من ذلك، أنه قال شعراً هو نائم! وعن هذه الحادثة يقول: " وأقول

أيضاً قطعة، ثلاثة أبيات، قلناها وأنا نائم، واستيقظت فأضفت إليها البيت الرابع:

أَلَا لِلَّهِ دَهْرٌ كُنْتُ فِيهِ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ رُوحِي وَأَهْلِي

فَمَا بَرَحْتُ يَدُ الْهَجْرَانِ حَتَّى طَوَاكَ بِنَائُهَا طَيَّ السَّجَلِ

سَقَانِي الصَّبْرَ هَجْرُكُمْ، كَمَا قَدْ سَقَانِي الْحَبَّ وَصَلُّكُمْ بِسَجَلِ

وَجَدْتُ الْوَصْلَ أَصْلَ الْوَجْدِ حَقًّا وَطُولَ الْهَجْرِ أَصْلًا لِلتَّسْلِي (2)

ويبدو أن موهبته الشعرية هذه قد تفتحت مبكرة، حيث كانت لديه المقدرة على

النظم قبل بلوغ الحلم، قال: " وفي المذهب الذي عليه الناس أقول من قصيدة قلناها قبل

بلوغ الحلم، أولها:

دَلِيلُ الْأَسَى نَارٌ عَلَى الْقَلْبِ تَلْفَحُ وَدَمْعٌ عَلَى الْخَدَّيْنِ يَهْمِي وَيَسْفَحُ

إِذَا كَتَمَ الْمَشْغُوفُ سِرَّ ضُلُوعِهِ فَإِنَّ دُمُوعَ الْعَيْنِ تُبْذِي وَتَفْضَحُ

إِذَا مَا جُفُونُ الْعَيْنِ سَالَتْ شُؤْنُهَا فِي الْقَلْبِ دَاءٌ لِلْغَرَامِ مُبْرَحٌ (3)

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 219 - 220 ، وانظر أيضاً الصفحات 112 - 113 ، و 184 ، و 237 .

(2) المصدر نفسه، ص 248 .

(3) المصدر نفسه، ص 113 .

كما يشير في موضع آخر ، إلى أنه قال شعراً في صباه ، ختم كل بيت منه بعجز من قصيدة طرفة بن العبد المعلقة ⁽¹⁾ ، ولعل هذه الموهبة المبكرة إنما جاءت من المنهاج التعليمي الذي كان يهدف في معظمه إلى تقويم اللسان وتنقيفه .

وقد أهله هذه المقدرة ، أن يقصده إخوانه لينظم لهم شعراً في بعض المواقف التي يعجزون عن التعبير عندها ، وهو يحترز في مقدمة الطوق عن هذه المسألة فيقول : "... وأكثر من ذلك ، فإن إخواني يجشمونني القول فيما يعرض لهم على طرائقهم ، ومذاهبهم " ⁽²⁾ .

وفي غير موضع من الطوق ، ينص صراحةً ، أنه قال الأبيات بتكليف من أحدهم ، فهو يقول مثلاً : " وإني لأعلم فتى من أهل الصيانة ، قد أولع بهوى له ، فاجتاز بعض إخوانه ، فوجده قاعداً مع من كان يحب ، فاستجلبه إلى منزله ، فأجابه بامتنال المسير بعده ، فمضى داعيه إلى منزله وانتظره حتى طال عليه التريص ، فلم يأت ، فلما كان بعد ذلك اجتمع به داعيه فعدّ عليه ، وأطال لومه على إخلافه مواعده ، فاعتذر وورى ، فقلت أنا للذي دعاه : أنا أكشف عذره صحيحاً من كتاب الله عز وجل ، إذ يقول : ﴿ ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكننا حُمِّلنا أوزاراً من زينة القوم ﴾ فضحك من حضر ، وكُلفت أن أقول في ذلك شيئاً ، فقلت :

وَجُرْحُكَ لِي جُرْحُ جُبَارٍ فَلَا تَلَمْ وَلَكِنْ جُرْحُ الْحُبِّ غَيْرُ جِبَارٍ

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 194 ، وانظر ص 255 .

(2) المصدر نفسه ، ص 87 .

وقد صارت الخيلانُ وسطَ بياضِهِ كَنيلُوفٍ حَفَّتُهُ رَوْضُ بهارٍ

وَكَمْ قالَ لي مَنْ مِتَّ وَجَدًا بِحُبِّهِ مَقَالَ . مَحْلُولِ المَقَالَـةِ زارٍ

وقد كَثُرَتْ مِنِّي إِلَيْهِ مَطالِبُ أُلْحَ عَلَيْهِ تارَةً وأُداري

أما في التَّواني ما يُبَرِّدُ غُلَّةً ويذهبُ شوقاً في ضلوعك سارٍ؟

فقلتُ له: لو كانَ ذلكَ، لَمْ تَكُنْ عداوَةً جارٍ في الأنامِ لِجارٍ

وقد يَتَرَأَى العَسْكرانِ لدى الوَغى وبيْنَهُما لِلْموتِ سُبُلُ بوارٍ⁽¹⁾

وحين يريد أن يكتب لأصحابه أو يخاطبه م ، فإنما يلجأ إلى الشعر في أحيان

كثيرة ، يعبرُ به عن مشاعره نحوهم ، أو يبلغهم رسالةً يريدُها ، وهم بالمقابل يرسلونه

شعراً ، وفي الطوق - أيضاً- الكثير من المواضع التي تكشف عن هذه المراسلات ،

والمكاتبات بينه وبين أصحابه ، يقول عن صديقه الحميم أبي عبد الله ، محمد بن

يحيى بن محمد بن الحسين التميمي ، المعروف بابن الطُّبْنِي : " فكنا نتهادى النظم

والنثر كثيراً، وآخر ما خاطبني به رسالةٌ في درجها هذه الأبيات ."⁽²⁾

ومن إحدى هذه المكاتبات ، قوله: " وكان لي صديقٌ مرّةً، وكثُرَ التدخيل بيني

وبينه ، حتى كَدَحَ ذلكَ فيه ، واستبان في وجهه وفي لَحْظِهِ ، وطُبِعَتْ على التَّائِي

والتَّريصِ والمَسالمةِ ما أَمَكَنْتُ ، ووجدتُ بالانخفاض سبيلاً إلى معاودة المودّة ، فكتبتُ

إليه شعراً منه :

(1) انظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص276 ، وانظر أيضاً الصفحات ، 237 ، 255 .

(2) المصدر نفسه ، ص 261 .

ولي في الذي أبدي مرام لو أنّها بدت ما ادعى حسن الرماية وهزّز" (١)

وكتب إلى بعض إخوانه، وقد تعلّقته جارية من ذوات المناصب والجمال

والشرف، من بنات القواد حتى بلغ من حبّها له مبلغ هيجان المرار الأسود ، وكادت

تختلط لولا أن تُدوركت بالعلاج ، يقول ابن حزم : " ومن بعض ما كتبت إليه :

قد سلّبت الفؤاد منها اختلاسا أي خلّق يعيش دون فؤاد ؟

فأغنّها بالوصل، تحي شريفاً وتقرّ بالشواب يوم المعاد

وأراها تعناض إن دام هذا من خلايلها حلى الأفياد

أنت، حقاً مُتيمّ الشمس ، حتّى عشّقها بين ذا الوري لك باد" (2)

ولا تقف شاعرية ابن حزم عند حدود النظم، بل تتعدّى ذلك إلى النثر " والنقاد

يكادون يجمعون على أنّ نثر ابن حزم هو آيته الأدبية في الروعة" (3) ويكاد يبلغ فيه

مبلغ كبار الكتاب والمترسّلين، بل إن أحد مؤرخي ابن حزم يرى "أنّ لنثره خصائص

تقترب من خصائص نثر الجاحظ ، إلا أنّها خالية من استطرادات الجاحظ ، وعدم

الترتيب المنطقي للأفكار - وهما من خصائص نثر الجاحظ- كما أنّ نثره لا يرتفع

إلى مستوى نثر الجاحظ في خفة الروح ، وطول النفس ، وجمال النكتة " (4).

(١) ابن حزم ،طوق الحمامة ، ص 177 - 178 .

(2) المصدر نفسه، ص 242، وانظر الصفحات، 85، 154 ، 172 ، 177 ، 178 ، 198 ، 207 ، 211 ، 224 ، 226 .

(3) عويس، ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي، 101.

(4) سعيد الأفغاني، ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة، ص81.

وروعة أسلوب ابن حزم تتجلى حتى في مؤلفاته العلمية التي تقوم على العقل

والمنطق والحجة والبرهان ، إذ المؤلف في أساليب الفقهاء ، وعبارات المناطقة

والأصوليين، أنها - في الغالب - تتجافى عن استخدام الأسلوب الأدبي ، بل ربما

كانت عصيةً على الفهم ، عسيرةً على القبول لا يكاد يستسيغها إلا أهل التخصص.

إلا أنك تجد أسلوب ابن حزم - في الغالب أيضاً- واضحاً لا لبس فيه، ولا

غموض يعتريه ، وسهلاً لا تكدره وعورة الألفاظ العلمية ، ولا جفاف المصطلحات

الفقهية والمنطقية، وفي هذا النص من كتابه " التقريب لحد المنطق" جلاء ذلك ، حيث

يقول في أدب الكلام في رتب الجدل ، وكيفية المناظرة المؤدبين إلى معرفة الحقائق:

"من حكم الجدل ألا يكون إلا بين اثنين ، طالبٍ حقيقة، ومُريدٍ بيان ؛ إما أن يكون

أحدهما على يقين من أمره ببرهانٍ قاطع ، لا بإيهام نفسه ولا بأمرٍ أقنعها به ، ويكون

الآخر متوهماً أنه على حق، متمنياً لنفسه ما لم يحصل له، وكالعامي في الظلمة خادعاً

لنفسه ، مغالطاً لعقله ، أو مغروراً كالحالم لا يدري أنه نائم حتى ينتبه..."⁽¹⁾.

ففي هذا النص من الوضوح، والبساطة، والميل أحياناً إلى التشبيه المفرد ، ما

يجعله يصلح أن يكون نصاً أدبياً ، على الرغم من كونه في المنطق .

ولكن، يظلُّ (طوق الحمامة) الشاهد الأكبر على تميز ابن حزم في هذا

الجانب (أعني النثر) ، وذلك بما أسبغه على أسلوبه من شاعرية ، جعلت د. إحسان

(1) ابن حزم، رسائله (رسالة التقريب لحد المنطق) ج 4، ص325 ، وانظر أيضاً : محمد المهري ، ابن حزم

أديباً (ناثراً) ، رسالة ماجستير، (ملحق النصوص المختارة) ص180-189، ملحق النصوص المختارة

عباس ، يقول: " من الواضح لمن يقرأ الطوق ، أنّ نثر ابن حزم فيه ، يقف موقف
المفارقة من شعره؛ فهو أكثر شاعريّة ، وأحفل بالحيويّة ، وأقلّ حظاً من المماحكات
الذهنيّة... " (1).

ويقول آخر: " الغريب في أمر ابن حزم ، أنّ شاعريّته الحقيقيّة تظهر في
بعض ما نثر أجلى وأسطع وأقوى مما تظهر في أكثر ما نظم ، وبيانهُ إذ يروي لك
الأشياء التي شاهدتها ، ويقصّ عليك الأحداث التي مرّ بها ، يبدو مجنّحاً قوياً ، لا يناله
رهقٌ مهما أوغل في التحليق ، وجدّ في الصعود... " (2).

والحقّ أنّ أسلوب أبي محمد النثري ، يُشكّل مظهراً خاصاً متميّزاً ، يحفظ
لصاحبه التفرد والإجادة بين أصحاب هذه الصنعة ، ويمنحه مكانةً رفيعة بين أعلام
الناثرين ، ويجعله يقف جنباً إلى جنبٍ مع معاصريه من أهل النثر الفنّي أمثال ابن
شهيد ، وابن زيدون .

" ويتميّز في أسلوبه (عموماً) باتجاهه إلى الترسل ، وتحرّره من الالتزام
بالسجع ، فلا يعمدُ إليه ولا يتكلفه ولا نجد في كتابه من السجع إلا فقرات قليلةً ، جاءت
عفو الخاطر ، لا كدّ فيها ولا عناء ، وأغلب الظنّ أنّه أتى بها حليّةً وطرافةً وإثباتاً
لمقدرته في هذا المجال ، ولا يخفى أنّ السجع إذا أتى عفوّ الخاطر ، دون عناءٍ أو كدّ

(1) ابن حزم، طوق الحمامة ، ص81، (دراسة المحقق) .

(2) عبد اللطيف شرارة، ابن حزم رائد التفكير العلمي، ص60-61.

أو استكراه ، فهو من مستحسن الكلام ولطيفه ، لما فيه من جرسٍ عذب، وموسيقى
موجية " (1).

ومن ذلك قوله - مثلاً- يصف جارية نشأت في دارهم: " عديمة الهزل، منيعة
البذل، بديعة البشر، مسبلة السّتر، فقيدة الدّام، قليلة الكلام، مغضوضة البصر، شديدة
الحذر، نقيّة من العيوب، دائمة القطوب، حلوة الإعراض، مطبوعة الانقباض، مليحة
الصدود، رزينة القعود..." (2) وعلى الرغم من السجع الظاهر في النص، إلا لم يعمل
على تغييب المعنى ، أو إطفاء بريقه ، بل ربما كان له دوره في لفت انتباه المتلقين
نحو هذه الصفات المتتالية للجارية .

أما في غير ذلك فأسلوب ابن حزم أصيلٌ وقوي ، سهلٌ وعذب ، لا كلمات
غامضة ، ولا عبارات فجّة مستكرة ، ومن ذلك قوله : "ومن وجوه العشق الوصل؛
وهو حظٌ رفيع، ومرتبّةٌ سرّيّة، ودرجةٌ عالية، وسعدٌ طالع، بل هو الحياة المجدّدة (3)،
والعيش السنّي ، والسرور الدائم ، ورحمةٌ من الله عظيمة ، ولولا أنّ الدنيا دار ممرّ
ومحنةٍ وكدر، والجنة دار جزاءٍ وأمان من المكاره ، لقلنا إنّ وصل المحبوب هو

(1) مصطفى عبد الواحد، دراسة الحب في الأدب العربي، ج2، ص294.

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص133-134.

(3) يشير الطاهر المكي في تحقيقه للطوق - عند هذه العبارة - إلى أن معظم المستشرقين ، وقفوا عند قول ابن
حزم (الحياة المجددة) ، حيث كانت العنوان الذي أعطاه الشاعر الإيطالي دانتي لأهم أعماله الأدبية (الحياة
المجددة) ثم يتساءل : أكان مجرد التقاء فكر بين عبقرين ؟ أم أنّ الأديب الإيطالي عرف كتاب الطوق ؟ سؤال
في انتظار من يجيب عليه. انظر: ابن حزم ، طوق الحمامة ، (تحقيق مكي) ص79 ، هامش (1) .

الصفاء الذي لا كدر فيه ، والفرح الذي لا شائبة ولا حزن معه ، وكمال الأمانى ،
ومنتهى الأراجى .

ولقد جرّبت اللذات على تصرفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها، فما للدنو
من السلطان، ولا المال المستفاد، ولا الوجود بعد العدم، ولا الأوبة بعد طول الغيبة، ولا
الأمن بعد الخوف ، ولا التروّح على المال ، من الموقع على النفس ما للوصل ، ولا
سيّما بعد طول الامتناع ، وحلول الهجر، حتى يتأجّج عليه الجوى، ويتوقّد لهيب
الشوق ، وتتضرمّ نار الرجاء .

وما أصناف النبات بعد غبّ القطر ، ولا إشراق الأزاهير بعد إتلاع السحاب
الساريات في الزمن السّجسج ، ولا خريز المياه المتخللة لأفانين النّوار ، ولا تأنق
القصور البيض قد أهدقت بها الرياض الخضر ، بأحسن من وصل حبيب رُضيت
أخلاقه ، وحُمدت غرائزه ، وتقابلت في الحسن أوصافه ، وإثّه لمعجزُ السنة البلغاء،
ومقصر فيه بيان الفصحاء ، وعنده تطيش الألباب ، وتعزب الأفهام ⁽¹⁾.

ففي هذا النص يتجلّى أسلوب ابن حزم في جريانه على طبيعته، وتدفقه على
سجيّته، بما فيه من خيال لحوح وتصوير متقن : (فما للدنو من السلطان ، ولا المال
المستفاد ، ...) وتشبيه ذكيّ : (القصور البيض قد أهدقت بها الرياض الخضر)
يعبر عن عاطفة حارة صادقة ، بحيث نرى فيه نموذجاً من أرقى ما خطّت أناملُ
الناثرين العرب .

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص180 - 181 .

وأكثر ما تتجلى براعةُ ابن حزم، وموهبته النثرية ؛ ففي الوصف ، إذ عنده يرقُّ أسلوبه ، وتتدفق عاطفته ، كاسيةً ألفاظه وصوره وعباراته ما يقتضيه الموقف العاطفي الذي يكون فيه ، فتأتي هذه الألفاظ والعبارات والصور معبرةً بصدقٍ عن صاحبها ، وكأنما يختارها اختياراً ، ومن أرقِّ ما يُستشهدُ به على ذلك قوله يصف دورهم ببلاط مغيث ، وقد استخبر بعض القادمين عنها ، فأخبره أنها: " قد امّحت رسومها ، وطُمِست أعلامُها ، وخفيت معاهدُها ، وغيّرها البلى ، وصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافي موحشة بعد الأنس، وخرائب منقطعة بعد الحسن، وشعابا مُفَرَّعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ،ومعازف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش ، بَعَدَ رجال كالليوث ، وخرائد كالدمى ، تفيضُ لديهم النعم الفاشية ، تبددَ شملهم، فصاروا في البلاد أيادي سبا ، فكأنَّ تلك المحاريب المنمّقة ، والمقاصير المزيّنة ، التي كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو الهمومُ حُسْنُ منظرها ، حين شملها الخراب ، وعمّها الهدم ، كأفواه السباع فاغرة ، تؤذن بفناء الدنيا ، وتريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير إليه كلّ من تراه قائماً فيها ، وتزهّد في طلبها، بعد أن زهدت في تركها (1) ، ويمضي ابن حزم في هذا الحديث الشجيّ ، حاشداً كلّ تلك الصور المتقابلة ، التي تضفي على النص نغماً حزيناً ، يشعر القارئ بذلك التغير المأساوي على أحوال ابن

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص115- 116، وحديث ابن حزم هنا يشبه حديث المرأة التي سكنت البادية قريباً من قبور أهلها ، الذي رواه أبو علي القالي في أماليه ، ج2/ ص6 ، فالحديثان يصدران من مشكاة واحدة

حزم ، في تكثيف يوحى بالحالة النفسية ، التي كانت تعصف به حين كتابته تلك الأسطر.

" ويرجع جانب كبير من إبداع ابن حزم في الوصف ، إلى إجادته للتشبيه ، وابتكاره في صوره ، بعيداً عن الصور المستهلكة ، والتعبيرات المألوفة، فهو ينتزع تشبيهه من بيئته المترفة ، ذات المناظر المتنوعة ، والصور البديعة "(1).

وأعد أحد الباحثين دراسة ، بعنوان (ابن حزم أدبياً ناثراً) خرج فيها حول نثر ابن حزم بما يلي : " وُجد أنّ ابن حزم على المستوى اللفظي ، يذهب إلى اختيار الألفاظ لتحقيق مردوداً دلالياً ، بالإضافة إلى ما تعطيه من ثراء موسيقي ، وهو ينوّع في اختياره بين الألفاظ ذات الأوزان المزيّدة ، والألفاظ الغريبة أو غير المألوفة لدى الكتاب ، ويرى الباحث أنّ ذلك متّصلٌ بحرصه على التميّز من جهةٍ ، وثراء ثقافته اللغوية والأدبية من جهةٍ أخرى .

أما على مستوى التركيب الجُمليّ ؛ فقد لوحظ أنّ ابن حزم ينوّع في جملة بين القصيرة والطويلة ، تتوّعاً متّصلاً بما يرمي إليه... ففي المجال الانفعالي تسود عنده الجملة الفعلية ، وفي المجال الوصفي ، أو السرد العادي ، يغلب استعماله لشبه الجملة والمصادر ، وفي مجال تحليل المواقف، ورسم الملامح النفسية، وإبراز معالم الصراع الداخلي ، يلجأ إلى الجمل الطويلة أحياناً، كما لوحظ أنّه يتّخذ من الجملة

(1) مصطفى عبد الواحد ، دراسة الحب في الأدب العربي ، 2 / 297 .

الطويلة مفتتحاً لمجموعةٍ من الجمل القصيرة ، مُركّزاً المعنى في الطويلة ، مفصّلاً إياه
بالجمل القصيرة التالية لها.

أما على مستوى المضمون ؛ فقد لاحظ الباحث ما ميّز كتابة ابن حزم من
تتّاص ، واتّكأ على المخزون الثقافي الأدبي ، والاستئناس بالتعبير المناسب من
القرآن الكريم ، أو السنّة النبويّة ، أو الشعر والأمثال والحكم ، وكان يستخدم هذا
المخزون بذكاء وحسٍّ فنيٍّ دقيق " (1).

وعلى الجملة فإنّ أسلوب ابن حزم النثريّ " بلغ أعلى درجات الجودة من حيث
اللفظ والأسلوب والمعاني ، فالألفاظ المفردة فيه منتقاة انتقاءً رائعاً ، بحيث تكون كلّ
كلمة متآخية مع أختها ، ولها جرسٌ حلوّ يتّفق مع موضوعها ، والأسلوب متماسكٌ
رصين سهلٌ ، يُعَدُّ من قبيل السهل الممتنع الذي لا عِوج فيه ولا اضطراب في موسيقاه
، ليس فيه تكلفٌ ، بل هو مسترسل ينساب بنغمات عذبة في النفس ، وله مع هذا
الأسلوب الرائع ، والألفاظ الصحيحة ، معانٍ تتآخى فتكوّن صوراً بيانية تغذي الخيال ،
فتشعّ بأخيلة تتفق مع موضوع القول ، وتذهب بالفكر فيها مذهب " (2).

ولكنّ ابن حزم بما يملكه من شخصيّة متحفزة مستوفزة ، وعقل ناضج ، وثقافة
واسعة ، وقريحة نقّادة ، لم يكن ليقصر في نشاطه الأدبي على قرض الشعر ، أو
إنشاء النثر ، بل لا بدّ من أن يكون له موقفه من الحياة الأدبية ، والإنتاج الأدبي ،

(1) محمد المهري ، ابن حزم أديباً (نائراً) ، رسالة ماجستير ، ص 157 .

(2) أبو زهرة ، ابن حزم ، ص 172 .

ولذلك نراه يضع عدداً من المؤلفات التي تؤكد - من خلال عنواناتها- مشاركته في التوجيه الأدبي ، أو التأريخ للحياة الأدبية وحركتها .

وقد ذكر المؤرخون عدداً من الكتب في هذه الناحية، تناولت مختلف الجوانب

الأدبية من نقد وتأصيل وتاريخ ، وأهم ما ذُكِرَ له ؛ المؤلفات التالية (1) :

1. الرد على ابن الإفيلي ، في شرحه لديوان المتنبي (2).

2. بيان الفصاحة والبلاغة .

3. رسالة في أن القرآن ليس من نوع بلاغة الناس.

4. شيء من العروض.

5. تسمية الشعراء الوافدين على أبي عامر (المنصور بن أبي عامر)

6. " وله كتابٌ في الشعراء ، ينقل عنه الحميدي كثيراً " قال هذا د. محمد رضوان

الداية (3) ولعله الكتابُ السابقُ .

(1) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء ، 18 / 193-197، ومحمد إبراهيم الكتاني، مؤلفات ابن حزم ورسائله بين أنصاره وخصومه ، مقال بمجلة الثقافة العربية ، ع 1، المغرب ، 1970، ص83-107 ، وأبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري ، مؤلفات الإمام ابن حزم المفقودة كلها ، مجلة الفيصل ، السنة الثالثة ، ع 26 ، السعودية ، 1979 ، ص 59-62 ، وعويس ، ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي، ص113، وإحسان عباس في دراسته على الطوق ، ص8-15.

(2) يقول ابن حزم في رسالة (فضل الأندلس وذكر رجالها) : " ومما يتعلق بذلك - أي بما أُلِفَ حول الشعر - شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد الإفيلي لشعر المتنبي ، وهو حسن جداً!! ". ابن حزم، رسائله، ج 2، ص183، وقد صدر هذا الشرح قبل بضع سنوات بتحقيق د. مصطفى عليان في أربعة مجلدات .

(3) محمد رضوان الداية ، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص309.

والى جانب هذه المؤلفات المفقودة ، فإنَّ لابن حزم آراءً نقديَّة ، ومواقفَ من

الشعر والشعراء ، مبنوثةٌ في عدد من رسائله منها : " رسالة التلخيص لوجوه

التلخيص " (1) و " رسالة مراتب العلوم " (2) و "رسالة التقريب لحد المنطق" (3) وله تعليقات

متفرقة ساقها تلميذه الحميدي في جذوة المقتبس ، وهو يصفه فيه بأنه كان عالماً بنقد

الشعر ، ونستطيع أن نجد في الطوق عدداً من الملاحظات النقدية ، أو التعليقات على

بعض القضايا الفنية والموضوعية عند الشعراء عموماً ، أو عند بعضهم خصوصاً ،

وسياتي بيانه في بحث تالٍ بإذن الله.

(1) ابن حزم ، رسائله (رسالة التلخيص لوجوه التلخيص) ج3، ص163 - 164.

(2) المصدر نفسه (رسالة مراتب العلوم) ج4، ص67- 69.

(3) المصدر نفسه (رسالة التقريب لحد المنطق) ج4، ص354، 356.